يونية ٢٠٠١ _ العدد ١٩٠

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

ألا تحفظون قليلاً من الشعر كي توقفوا المذبحة؟

ملف: أدباء في مهب العراق

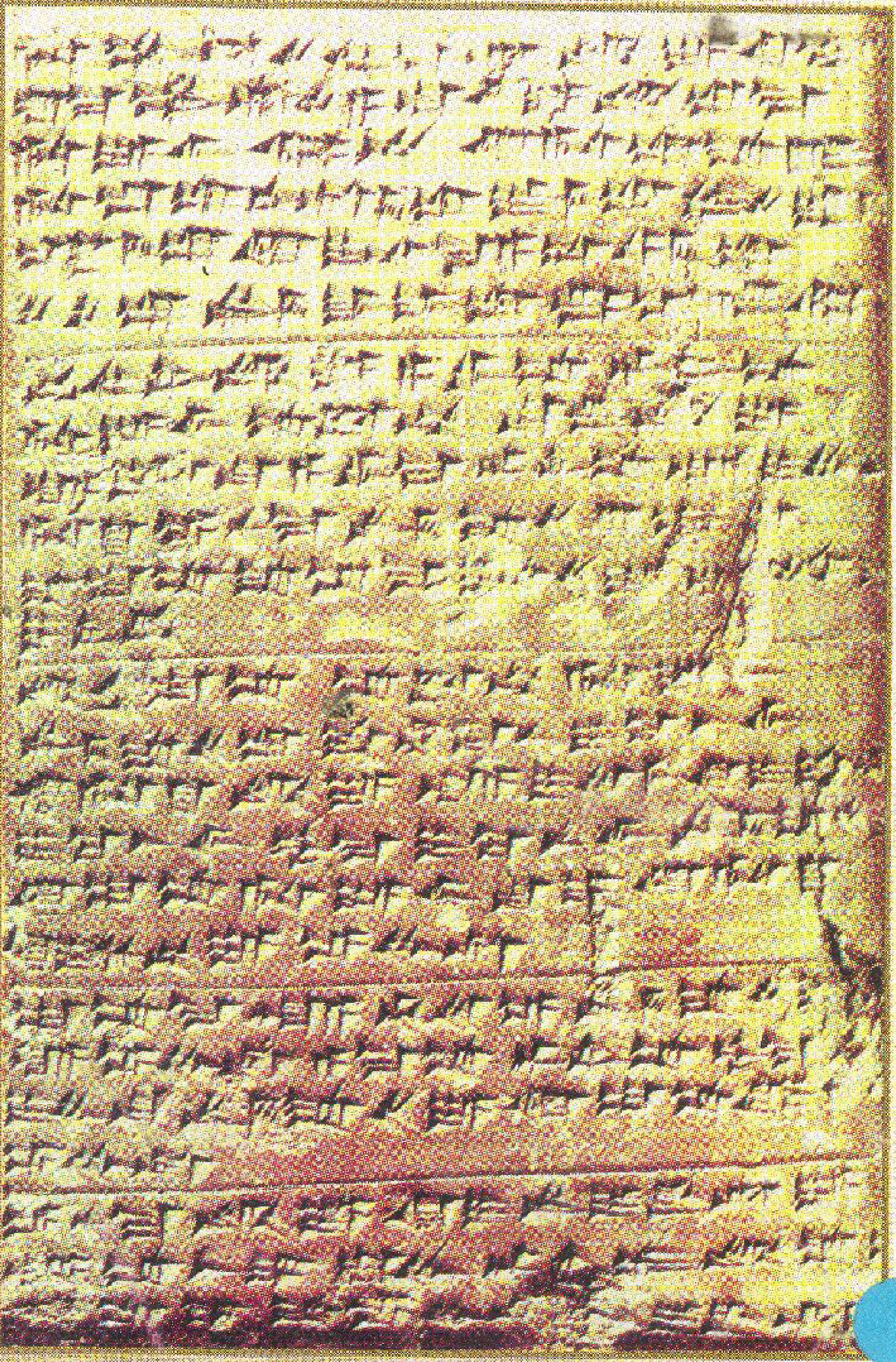

عبدالله الطوخي: دراما الحب والثورة

توفيق الحكيم بين الشباب والشيخوخة

انتفاضة: الولد الذى قطف الشمس

فنانون وشهداء: الرسم بريشة القلب

الأحلام والسكاكين في قصص عيسى القيرى

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى
تأسست عام ١٩٨٤ - السنة السابعة عشر
العدد ١٩٠ - يونيو ٢٠٠١

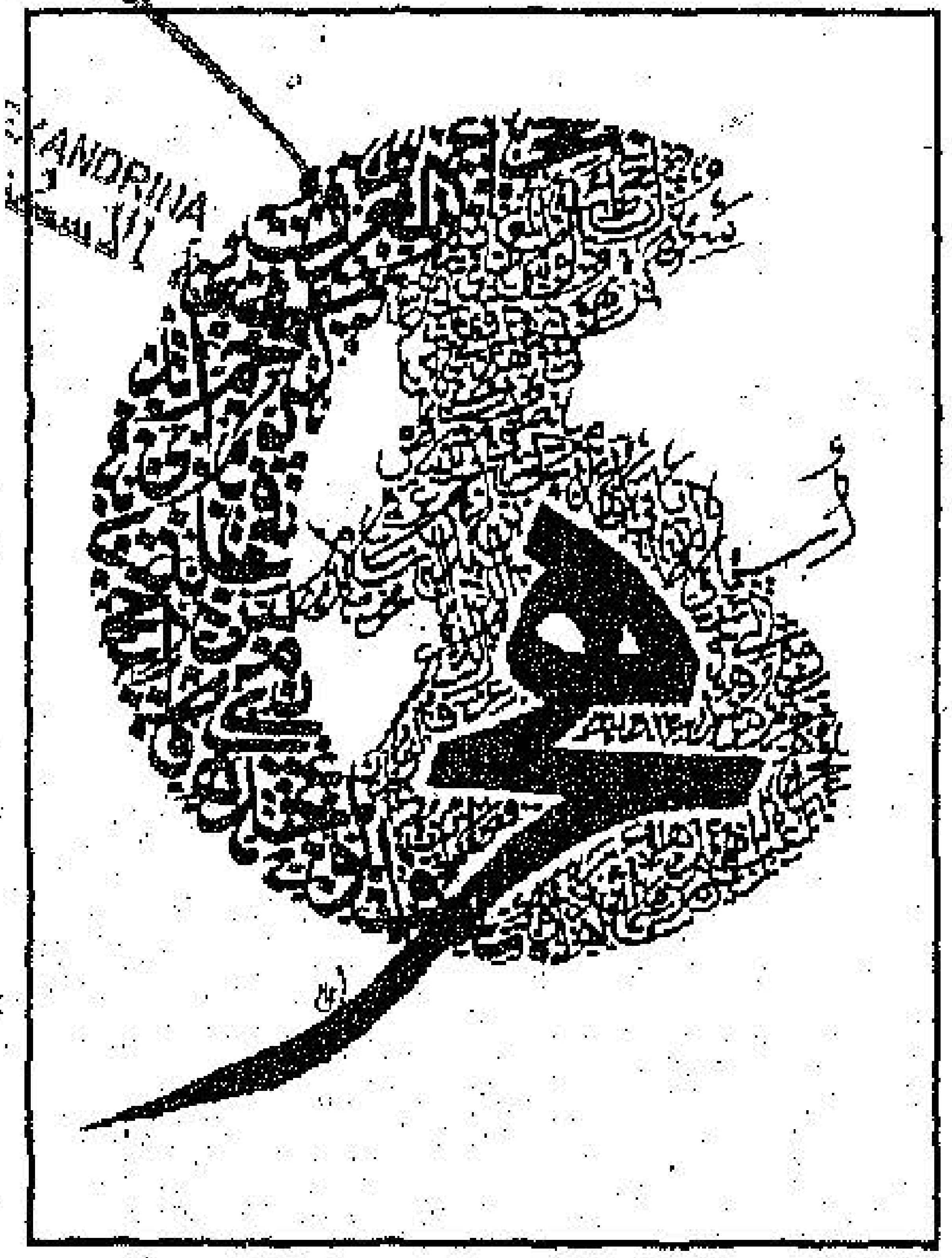

رئيس مجلس الادارة: د. رفعت السعيد
رئيس التحرير: فريدة النقاش
مدير التحرير: حلمى سالم
سكرتير التحرير: مصطفى عبادة

مجلس التحرير: إبراهيم أصلان / د. صلاح السروى / طلعت الشايب / غادة نبيل / كمال رمزى / ماجد يوسف

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

المستشارون : د. الطاهر مكى / د. أمينة رشيد/ صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس

شارك فى هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون : د. لطيفة الزيات/ د. عبد المحسن طه بدر/ محمد روميش/ ملك عبد العزيز.

لوحة الغلاف : لوحة من الفخار ـ نقش عليه نص رسالة مرسلة من أحد حكام بابل إلى الملك إخناتون، مكتوبة بالخط المسمارى .

الرسوم الداخلية للفنان: شريف أبراهيم

الإخراج الفنى للغلاف : أحمد السجينى

(طبع شركة الأمل للطباعة والنشر) .

أعمال الصف والتوضيب الفنى : نسرين سعيد إبراهيم

المراسلات : مجلة أدب ونقد ١ شارع كريم الدولة/ ميدان طلعت حرب . الأهالى القاهرة ـ ت : ٢٩ / ٢٨ / ٥٧٩١٦٢٧ فاكس : ٥٧٨٤٨٦٧

الاشتراكات لمدة عام : داخل مصر ٤٠ جنيها / البلاد العربية ٣٠ دولاراً ـ أوروبا وأمريكا ـ ٦٠ دولاراً باسم الأهالى ـ مجلة أدب ونقد . الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

المحتويات

- أول الكلام / المحررة / ٥

- ثلاث قصائد/ خلود محمود/ ٩

*** ملف : مبدعون في مهب العراق / إعداد وتقديم:**

سعد القرش / ١٣

- محمد علي طه وأطفال فلسطين: يلوّنون سماء القدس/ فريدة النقاش/ ٥٠

- وعي الحكيم من الشباب إلى الشيخوخة/ دراسة/ د. حسني محمود/٦٦

- **عبدالله الطوخي : دراما الحب والثورة/ ف.ن/ ٩٠**

*** الديوان الصغير: أحلام المصري وسكاكينه/ مختارات من قصص محمد عيسى القيري/ إعداد وتقديم: حلمي سالم/ ٩٧**

- جرّ شكل/ طالبان مصر/ ح.س/ ١٧

- صورة الفنان / ماجد يوسف/ ١٢١

- كتاب/ شهداء يرسمون شهداء/ محمد سيد سلطان/ ١٢٥

- متوازيان/ قصة / إيهاب الحضري/ ١٣٠

- بهجة الألوان / شعر/ محمود الزيات/ ١٣٣

- الشكوى لله / شعر/ مدحت منير/ ١٣٦

- نافذة المبدعين/ ١٣٧

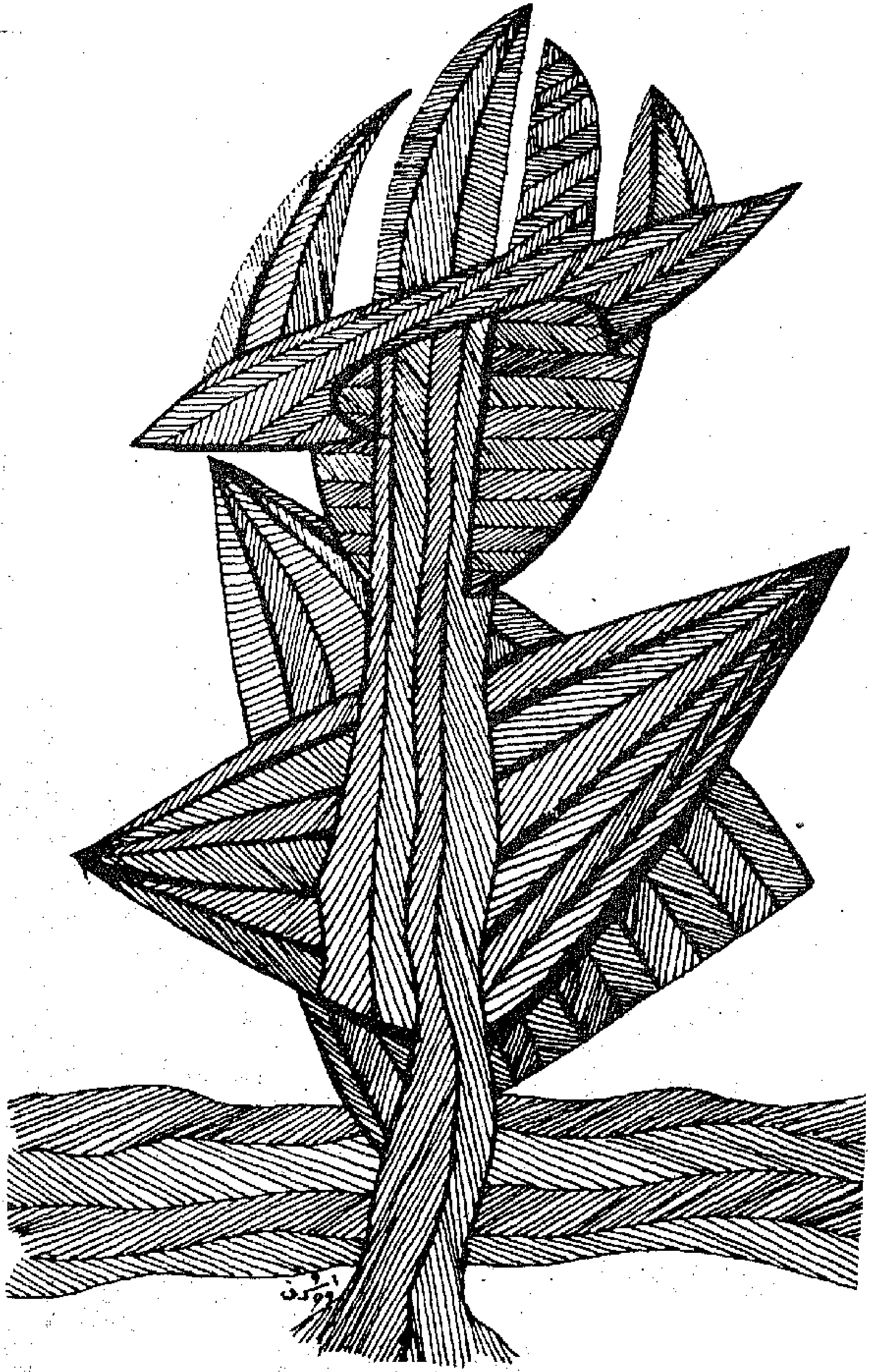

أول الكتابة

نعم .. إنه الألم..

فما يفرح فى زماننا هذا شحيح، وحتى أفراحنا الصغيرة غالبا ماتلحقها غصة معجونة بطعم المرارة والأسى العاجز عن أن يتحول فعلا وغضبا.. إن أحداً منا مهما كان قادرا على انتزاع نفسه من هذا العالم الذى لا قلب له لا يستطيع أن يغمض عينيه أمام مشهد الجنازات اليومية فى فلسطين، أو يصم أذنيه عن أزيز الفانتوم وهى تقتلع أشجار الزيتون وجدران المخيمات، أو يتظاهر بأنه لم يسمع بأعداد الشهداء والجرحى وهى تتزايد كل يوم، أو يغض الطرف فى آخر النهار عن العجز العربى عن تقديم مساندة فعالة للانتفاضة تلجم التوحش الصهيونى وتجبر أمريكا على إعادة حساباتها دون إستخفاف بالعرب... بمصالحهم وكرامتهم. ومع ذلك.. ورغم ذلك.. يؤسفنا أن ننتزع فرحة صغيرة صافية من النمو البطىء لأشكال التضامن الشعبى مع الانتفاضة حتى ولو كانت أعمالا متواضعة لأنها تحفر - ولو ببطء - مجرى جديداً فى حياتنا عنوانه المقاومة..

نعم إنها مقاومة الظلم والعسف.. مقاومة تقول لا للإستغلال والارهاب.. ونظل نجتهد لنتوصل للوشائج العميقة المخفية بينها وبين المقاومة العفوية لحزمة السياسات الإنفتاحية وعبادة السوق والليبرالية الجديدة والخصخصة وانسحاب الدولة من ميدان الخدمات الاجتماعية وتفرغها لخدمة المستثمرين وكبار رجال الأعمال، وهى جميعا الوجه الآخر للسياسات التى جعلت نجدة الفلسطينين مستحيلة والغضب الرسمى من أمريكا حذرا بل قل مناشدة ذليلة.. نعم إنها الوجه الآخر للسياسات التى ألقت بنصف سكان بلادنا إلى ما تحت البطالة واليأس متطلعين جلهم إلى هجرة تنغلق أبوابها شيئاً فشيئاً.. فيهاجر بعضهم إلى داخل نفسه والبعض الآخر إلى جماعات التطرف الدينى.. و.. نعم هناك وشائج.. وهناك أيضاً أمل.. أمل علينا أن نبتدعه من المقاومة نمسك به ونحن نستكشف طريقنا الجديد على ضوئه الشاحب..

هناك أمل

وسوف نهديكم فى عددنا هذا أملا وفرحة صغيرة ووعدا، إذ نقدم ثلاث قصائد مدهشة لطفلة من الاسماعيلية فى العاشرة من عمرها هى «خلو د محمود» نصدر بها العدد مفتتحا للوعد وعونا على مافيه من شحنة ألم.

المبدعون الذين قدمهم لنا الزميل الروائي «سعد القرش» من العراق لم يتمكنوا من الهجرة وظلوا يعيشون في بلادهم تحت الحصار، يكتبون مايفيض بالمرارة وصور الموت الذي أفرط في الوجود ..

في إبداعهم هو البديل الأفضل لإدمان الصمت».. فنحن بإزاء شعب محب للحياة رغم كل شيء تلك التي تعد أعظم قصائده غير المكتوبة كما يقول سعد. وهذا أول الموج/ وقد «أثقلته المراكب بالموتى» كما تقول الشاعرة صفاء دياب»، أو يقول حاتم حسام الدين:

أحدث حبيبي

عن زغرودة أمي الطافحة بالنواح

هذا الملف هو صرخة إستغاثة، وهو أيضاً وثيقة إدانة للنظام العربي الذي قبل حتى الآن بالحصار على العراق ولم يتعدل موقفه إلا قليلا حين بادرت أطراف دولية مثل روسيا وفرنسا بفتح الثغرات والمطالبة بإعادة النظر الشاملة في العقوبات الدولية ضد العراق..

هذه إذن شحنة ألم وغضب تخاصم معظم نصوصها روح الخطابة وتصل إلى فنية عالية منسوجة من تفاصيل الموت المفرط وأشواق الحياة معا، تغسلها الدموع وتلفها كبرياء جريحة كأنها تستلهم شاعر العراق الكبير «محمد مهدى الجواهرى» الذى يهدى له شاعر منفي آخر هو محمد سعيد الصكار قصيدته (ومن العراق إلى فلسطين.. ننشر قصة - نبوءة لواحد من أهم المبدعين الفلسطينيين هو «محمد على طه» فالولد الذى قطف الشمس مكتوبة قبل ما يزيد على عشر سنوات ولكنها راهنة ونابضة شأن قضية الشعب وتضحياته السخية من أجل الاستقلال..

يأبى «محمد على طه» الحكاء الساخر المفعم بالروح الشعرية أن يرى في الوطن الجريح كلا مثاليا صافيا متجانسا وجميلا وجديراً بالعطف وحده بما أنه ضحية وذلك اتساقا مع الروح النقدى في كل عمله كما استخلصته المحررة في مقالها عن المجموعة التى ننشر قصة منها تحية لانتفاضة الشعب الفلسطيني الذى سوف تبقى أشكال مقاومته إبداعا حيا فى كل المجاولات ونبوءة بمستقبل عربى آخر يخرج من قبضة الهيمنة الأمريكية.

ونقدم لكم في الديوان الصغير حكاء آخر بليغا في فرادته رحل عنا وكنا ننتظر منه الكثير هو القاص الشاعر «محمد عيسى القيرى» الأمين المساعد لحزب التجمع في الاسماعيلية.. وسوف تجدون في «عمارة البيه» قصة جديدة بكل المقاييس لغة

وبناء وفلسفة ورؤية كتبها «محمد» بعد هزيمة ١٩٦٧ بعشرين عاما، وإذا بنا أمام نص نابض بالحياة ممتلىء الدلالة محكم الصنع يتفجر شاعرية يخلقها هذا الصراع الذى لايبدو لشدة رهافته صراعا بين عالمين.. فمن رجب أبى رجب جد رجب أنه حكى..

ثمة ثبات ظاهر فى القسمة: الكادحون وأبناؤهم أبا عن جد.. والملاك الذين كدسوا الثروة وباعوا الوطن فترك القائد جنده فى الصحراء ينزفون وهرب.

سمعه وهو يركب الجيب يصرخ «إننى أموت سيادتك .. خذنى معك سيادتك..»

كان دم عطوة مازال نازفا .. سال الدم.. جرى.. جرى ليلحق بالجيب الجنونية السرعة والتى مضت تنهب الرمل ثم الأسفلت ومازال دم عطوة يلهث وراءها..»

إنه الدم الذى لا تستطيع بحار العالم غسله، أنه الدم الذى يدخل لصنابير مياه «عمارة البيه» فيقوض تدفقه تراتبية العالم الذى يبدو للوهلة الأولى كأنه مخلوق معنا وأبدى.. وساكن.

«وعندما خلع البيه ملابسه، ومضى إلى الحمام لينفض عن جسده وعثاء حرب لم يخضها، عالج صنبور الدش، فغطاه شلال من الدم..»

وفى صورة بليغة عن زيف عالم الكبار فى قصته تاتا «مستقبلين زوجة المسؤول التى سبقتها ابتسامتها إلى الباب، وقدمت يديها وخديها إلى جميع النسوة ينهشنهم ترحابا وحبا»..

فى عددنا أحزان كثيرة لكننا نعمل لكى نستخلص منها وعودا وأملا فى المستقبل كما قلت ولذا رأينا أن نحيى الكاتب الراحل عبدالله الطوخى بقراءة نقدية لسيرته الذاتية «دراما الحب والثورة»، وهى التى أثارت حين صدورها قبل سنوات مناقشات واسعة حول مساحة الحرية المتاحة لنا لكتابة سيرة صادقة فى مجتمع يغلب عليه التزمت وتستبديه الأفكار القديمة وتراقبه عيون البصاصين السريين والعلنيين .

وهى مع ذلك سيرة شجاعة وممتعة سوف تواصل الحياة وتجرى قراءتها مجددا ضمن الإبداع المتنوع لعبدالله الطوخى .

وبينما يجر «حلمى سالم» شكل طالبان مصر وذهنية التحريم السائدة بينهم يجرون هم مرة أخرى شكل واحدة من أهم كاتباتنا هى الدكتورة نوال السعداوى إلى المحاكمة عن طريق الحسبة بإدعاء أنها تطاولت على طقوس الحج قائلة أنها من بقايا الوثنية وهو مانفته الكاتبة التى اتهمت الصحفى الذى أجرى معها الحوار بأنه انتزع بعض جمل من سياقها.

وسبق «لأدب ونقد» أن طالبت بإلغاء الحسبة نهائياً بعد أن تبين لها أن عملية

إحالة حق الادعاء بالحسبة من الأفراد إلى النيابة لم تكن إلا حيلة ليبقى المثقفون النقديون رهائن للأمزجة السياسية الحكومية حين تقرر أن تؤدبهم تحرك دعاوى الحسبة أو تتجاهلها إن شاءت ..

وما أحوجنا نحن المثقفين دفاعا عن حقنا من التعبير والاعتقاد والتفكير دون أرهاب أن نبلور موقفا موحدا قويا ندافع عنه بكل ما نملك من أدوات وإستنادا إلى القوى الديموقراطية فى المجتمع لا فحسب لإلغاء الحسبة وإنما أيضا لإلغاء القوانين المقيدة للحريات كافة خاصة وأن الحكم بحبس الباحث الدكتور «سعد الدين إبراهيم» رئيس مركز بن خلدون» هو رسالة تهديد لنا جميعا بصرف النظر عن منطلقاتنا الفكرية ومدارسنا وخياراتنا.. وسعد الدين إبراهيم لم يحمل سلاحا ولم يشكل فرقا مسلحة بل بحث وحاضر وكتب.

ويتتبع الباحث الأردنى د. حسنى محمود فى دراسته «وعى توفيق الحكيم من الشباب إلى الشيخوخة» فى رحلة شاملة مع فكره تثير قضايا كثيرة لعل أولها أن تكون الفكرة الشائعة فى البحث حول ما يمكن أن نسميه التطابق فى الموقع الطبقى مع الوعى الطبقى مع التعبير، وهى قضية مركبة بالغة التعقيد سوف نفرد لها ماتستحقه من مساحات فى أعدادنا القادمة نبدأها بمناقشة هذا البحث نفسه. فهل تعذروننا لأن أحزاننا كثيرة تلف عددنا هذا.. ألم أقل لكم أننا فى حاجة لإبتداع الأمل.. وسوف نفعل معا.

المحررة

• فى العدد القادم •

مقالات ونصوص بأقلام: ماجدة أباظة، عبد الكريم محمد على، عماد الصابر، محمود عبد الوهاب، محمد بركة، محمود الحلوانى، غادة نبيل، خالد سليمان، وغيرهم.

شعر

ثلاث قصائد

خلود محمود

خلود محمود ، طفلة ذات عشر سنوات ، التقينا بها فى مؤتمر الاسماعيلية الأدبى الأول (باسم محمود دياب) . وقد فاجأت الجميع بهذه القصائد الجميلة ، التى ننشرها هنا تحية لها ، وللشعر ، ولمصر الفنية المبدعة.

" أدب ونقد"

١

هات فرخ أسود واكتب عليه اسمك
يمكن تقدر تاخد روحك من جوه الضلمة
بس خد بالك
لا الأبيض يلزق فى الأسود وتموت على كده

أنا عايزة أعيط
إحساس الوردة اللى ورقها بيسقط
مع إن الشمس بتحضنها وتبوس فى عنيها
إحساس الكتكوت الأخضر

لما يكش ويزنق نفسه جوه الحيطة
مع إن الحداية السوده مابتجيش
واتدارت عنه بعيد
إحساس عروستى اللى بتبكى
كل ماحاول ألعب بيها
أنا عايزة أعيط
حد يدوّر ليه
أنا عايزة أعيط

٢

ولأنك نخلة طلعت
وماحسيتش بخوف ولاخضة
واتمنيت إنى أكون وسط العصافير
أطير وأطير وارجع لمكانى
لكن ياخسارة نسيت
أنا أصلاً بلحة
ومن حق أى حد يهزك ويوقعنى

٣

تعرف إيه اللى ممكن يوصلك
للدور الخامس من دماغى
سلم المناخير
حاجة غريبة؟

مع إن كل الأفكار بتخش من المناخير
وكل فكرة وليها ريحة
بتوصلها لدور

فى الدور الخامس شقة وفيها دولاب
مفتوح ، متبعزق ، مليان كراكيب
كويس إن الشقة مقفولة
الدور الرابع فيه مرجيحة
نفسى أثبتها ولو ليوم واحد

الدور الثالث فيه فرن
بيسوى الأفكار
بس مابلحقهاش
وممكن تطلع محروقة

الدور الثانى فيه شباك مفتوح
يعنى الهوى ممكن يطير الستاير والأفكار

الدور الأول مليان مرايات
سيبك منه واطلع
أحسن ماتتلخبط

ملف

مبدعون فى مهب العراق

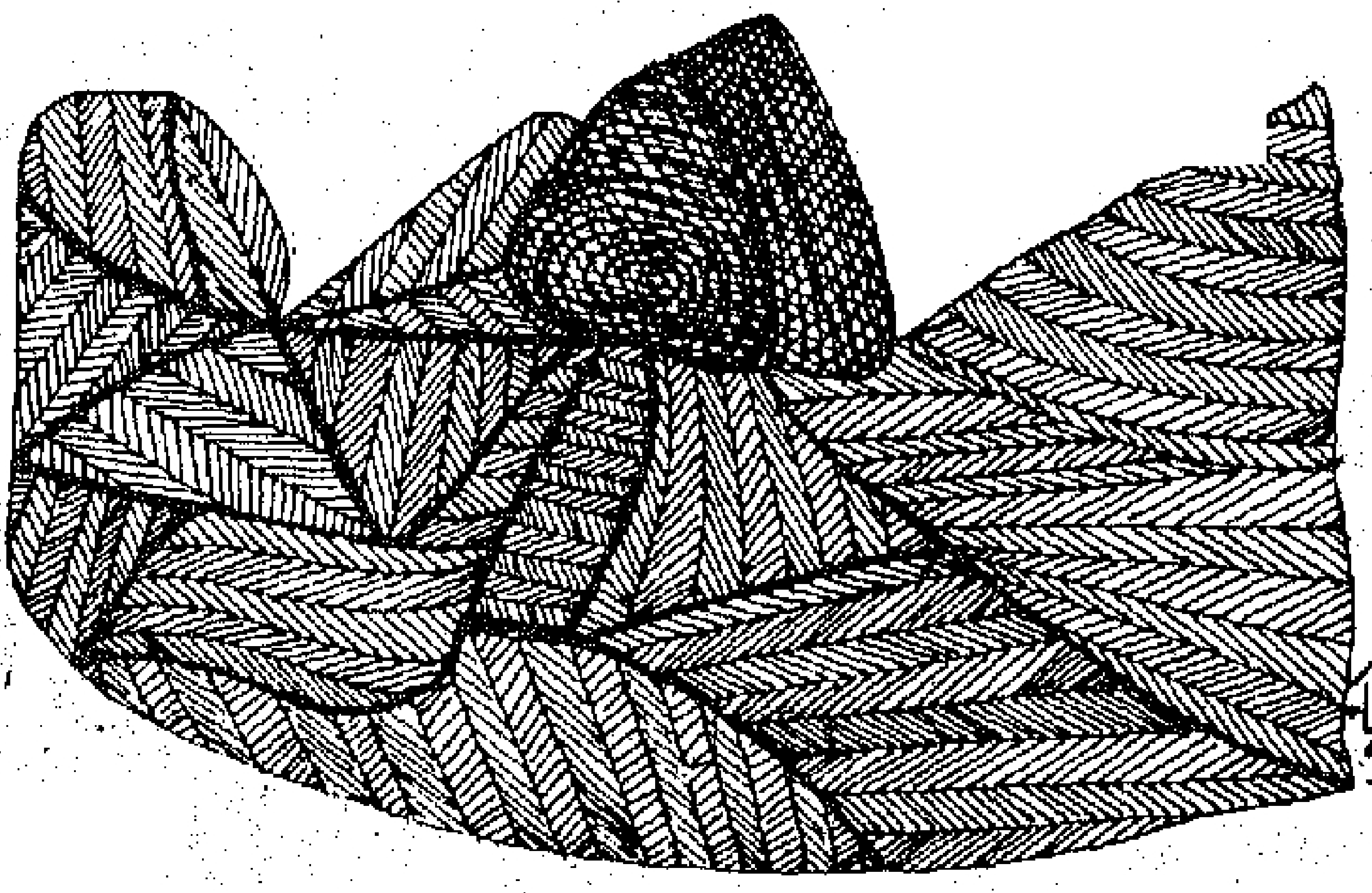

إعداد وتقديم

سعد القرشى

(فى سنوات الحصار أنبت العراق جيلاً جديداً، يتربى على ثقافة " الاستنساخ"، (يطلقون على التصوير الضوئى للكتب والمستندات استنساخاً) هذا هو البديل السريع لعدم تواصلهم مع العالم الخارجى ، هذا الجيل لم يتمكن - مثل الشعراء الذين أدمنوا المهجر - من ترك العراق ، ولايريدون ، كما أنهم يرفضون إلا أن يكونوا مبدعين ، ولوجه الإبداع وحده أخلصوا ، وهذا يكلفهم كثيراً ليتفادوا ألغاماً تبدأ بالكلام ، وتنتهى بما هو أخطر.

معظم الإبداع العراقى الآن يفيض مرارة ، لكنه البديل الأفضل لإدمان الصمت.

إلى هؤلاء الذين شارك مصريون فى قتالهم ، قبل عشر سنوات ذهبت أقدم تحية واعتذاراً ، عن جريمة ارتكبها شباب تحت عنوان " الواجب" ، فواجهنى بيت " السياب" ، وهو يتحدث عن الخليج الذى صار لعنة على العراق والمصريين أيضاً:

ياخليج

ياواهب اللؤلؤ والمحار والردى

أنقذ العراق من الردى الذى صوبه إليه جنود ٣٤ دولة . تاريخ وذاكرة لاتزال تثير الدهشة .. ذاكرة بكر ، مراوغة ، وليت هؤلاء " البيض" كانوا متحضرين بالقدر الذى لايروننا فيه مجرد هنود حمر ، وهل يسمعون صرخة الهندى الأحمر - فى قصيدة محمود درويش :

- ألا تحفظون قليلاً من الشعر كى توقفوا المذبحة؟

جاء المغول من أعالى البحار، يدمرون شعباً يملك مبدعوه أعالى الكلام ، فدمروا الجسد وبقيت الروح تغتسل بالشعر.

رأيت شعباً محباً للحياة ، التى تعد أعظم قصائده غير المكتوبة ، ومبدعين سكتوا دهراً ونطقوا شعراً ، فعشر سنوات من الحصار الخارجى والنفسى كافية لتفجير طاقات " الكلام " ، وأى كلام فى العراق الآن شعر.

س . ا

شعر

في ذكرى الجواهري

محمد سعيد الصكار

ترجل ميمون الخطى والركائب
وغادر موفور الثنا والمناقب
فتى النجف الموفي على الكون حانقا
ينوء بما في صدره من طلائب
ويحمل هم الأرض ، لاخطواته
تميد ، ولاينبو الأسى بالمناكب
غضوبا يمج النار في كلماته
ويرمي بها وجه الدعي الموارب
ولوعا باذكاء الحرائق، كلما
خبت جذوة أذكى لها ألف لاهب
يسعرها ، حتى إذا عصفت به
تلمس مزهوا جراح المحارب
هو الصوت إذ يستحكم الصمت خشية
يصلُّ ويعلو صاخباً غير هائب
على بيت شعر منه تتسق الخطى

وتحدى ببيت منه غر المواكب
فتهتز أركان الجموع ويلتقى
هدير المنايا بالصدى المتجاوب
له الحكم لا للمدعى الحكم سلطة
يصول بشعب لابشرطة غا صب
على ثقة أن الجموع رمت به
يداً ولساناً فى جحيم المعاطب
ترجل والعشر العجاف حصارها
يصك على تلك البطون السواغب
وغادر والكابوس مازال جاثما
ولحم الضحايا عالقاً بالمخالب
عجافا تقضت والعراق رهينة
لدى عصبة أزرت بكل العصائب
وعاد بها الضرع المبارك ناضباً
ومحتلباً يمتاحه شر حالب
يرص بمن عقوا الأمومة مثلما
ببطن امها رصت صغار العقارب
فكان جزاء الرافدين وأهله
خراب نفوس تحتمى بخرائب
وغام به الأمس الذى ابتدأت به
فنون الدنى فى شرقها والمغارب
وشاخ به وجه الزمان فما درى
أتلك غضون أم بقايا مساحب
وغودر والأحقاد تلفح وجهه
وأقداره مرزومة فى الحقائب
يروح فريق بالوعود خفيفة

ويغدو فريق مثقلا بالمطالب
عراق به الخمس الحضارات أسرجت ،
قناديلها أمسى أسير الغياهب
بنقمة من بالحقد واللؤم يجترى
على وطن فى العز والمجد ضارب
وشهوة من يستعبد الكون مفردا
وغفلة من يرخى الكنوز لناهب
وأهلى بفن المكننات تعقلا
يريدون خرقا للجنون المناصب
فتبرق فى بعض المجالس نخوة
ويشتط بعض فى عناد المضارب
ويبقى فريق بين هذى وهذه
فليس بمخضوض وليس براسب
فياأهلنا المستمرئين سكوتهم
على ماجرى فى أهلهم من عجائب
كفى خيبة آمالكم إذ يصوغها
غريب وتبقى نهبة للأجانب
فليس عزيزاً من يذل أعزة
ولاصائبا من يحتفى بالمصائب
وياأهل عزى فى العراق توثبا
فما عز نصر للأسير المواثب
يفك بكم أسر البلاد ويمحى
هوان مقيم أو مذلة هارب
وإن تكب منكم خطوة يأت غيرها
وثوقا ، وتغنى قوة بالتجارب
ففيكم ومنكم ينبرى السيل كاسحاً

هزائم تطلى بالأمانى الكواذب
سلاما ضمير المتعسبين ، تجوهرت
وشفت وطابت نفسه بالمتاعب
فيا نخلة فى الشام كم أطعمت جنى
وكم أثلت مجدا فسيح الجوانب
تنام جراحات العراق بظلها
ويصحو غد من صبحه فى الذوائب
وياواهبا تاريخنا سفر مجده
تبارك قبر ضم أكرم واهب
وياثاويا فى الشام لاتيأس إنما
مقامك فى كل القلوب اللواهب
فإما ثوت فى الشام منا أعزة
فللشام مثوى حبنا والرغائب
وللشام أم نحتمى بحنانها
ومدخر نعتامه فى النوائب
سلام ولاحزن ، وزهو ولاأسى
على غائب عنا وليس بغائب
سلام على تلك المواهب كشفت
مواهب أهلى فى ضياع المواهب

شـــعـــر

أطرق قليلاً قبل أن يستريح

عماد كاظم العبيدي

الذاكرة كهف
متى أهرِّب منها الكنوز؟
هل لي عربة من حلم لايفيق؟
أشدُّ البحر على ظلمتي
أو ..
لماذا يعبرني السهل لاهثاً
ربما..
لمستقبل أدّعيه ماضياً
أقول:
حملت صدفاً إلى قمر ضجر
أمضي
أو لم أفصل الروح على نخلة؟
المطر .. لاشأن لي به

المطر .. لايجيد اللغة فينزلق
حقاً
غادرني مثل تكايا الأزاهير
ذلك هو الوعد
رأيته قبل عام الحنين بنصف بكاء
يجمع التراب فوق صدره
خلته بانتظار عشبة الرحمة
لاأريد سكة ينطقها الغروب
ولاظل لي !!
أوقفت الشمس على طائر عجوز
فلاذت الساعة بمنقاره
أدعو الذاكرة للسؤال
وقد أدحرج بين قدميها قنبلة التهم
الرمال .. هي من غرست عطل العبارة
فكيف أميز الطرقات على يدي ؟
لن أسر للطير أن لي أجنحة
ومولدتي خرساء
ربما ..
ستفضحني الريح بذات نزوة
أيها الماضي
لم تكن زمناً للطين
أنت جوف وأسميك قفصاً
كي أستفز سنواتي القادمة.

شــعر

طبيعيـــــون

صفاء ذياب

كالنظرة الملقاة على عاتق أعمى

تأبطوا المسافات،

فاغرين فم الصباح منذ أول الندى.

دائما يكون المارة ، وقد أسرفتهم الخمرة

متناسين الصباح.

هذا أول الموج،

وقد أثقلته المراكب بالغرقى

يبايعه المارة حيناً

ويندلقون فى زفير الشمس أخرى.

مزق من القنافذ

وشراشف من شفة الليل

تخون المساء مع نبضة صبح أحمر

بالحفاوة القامات
عمود من الكهرباء أذهل السقف
ونخلة تعانق الزبد الطافح من الشهيق
وقاماتهم الممتدة على طول الصعود
ناهضة أبداً..
تتسكع بين فجوات الصباح المبرقة
وهديل وجههم ينضح أعلى

مذ أسرف البرق فى لوحته
شغل المارة بريق أخضر
فانتفخ الشارع أنقاضاً
تتيمم بالقطط المزجاة على كتفيها
لا المراكب أسندت راحتها على فخذ الشواطئ
لا البحار ، أسبلت أجفانها متدثرة بالوعود
لاهم يشطب الأعراس بيد صفراء
كل شئ هنا، حاضر
إلا الدماء..
بينما المارة الذين مروا كراماً
مروا كراماً

كان الصباح مبتلعاً كل السواد
بينما السواد الذى ابتلعه الصباح
ماذا يبتلع الآن؟
قالوا: « الصباح ..

نافذة على عالم ليس لنا »
هم الفائزون بالشوارع
كانوا إذا جن الصباح ، يجنون
وإذا أتى ليل
يناموني في خاصرة السواد
أمَّا ، وقد ابتلع الصباح آخرة السواد
وقد حاصرتهم بالمعاول والرمال
يلتمسون الأسفلت أن يعود،
تدثرت بالسماء التي لاتنزل الموائد أبداً ناقضة كل العهود.

. . .

يارصيف..
ماذا تترك للمارة حين يرمون ابتساماتهم خلف السماء ؟
ذات يوم ، توهموا أن البيوت قبور
وأن الموانئ ليست سوى قلق للبحار
وأن المراكب تتناسل من غيث المطر
وأن الأغنياء أبناء الإله ،
وأنهم ..
دائماً ..
يأتون ..
هكذا ..

شعر

نتوءات ... نا

حاتم حسام الدين

نتوء (١)

تسقطين ذهابك على كومة من سنين

أنت سلمتنى ليدىْ

انتصرت على بوصلات القذائف

ظللى قلبى ليتفسح النهار...

كلما كبرت .. تصابت القصيدة فيك

أنا ... أنا ...

أحدث جيبى عن :

عن زغرودة أمى الطافحة بالنواح

عن دخان لا يحجبنى

عن تراب لايشتمنى إذا دسته

عن مذياع لايتناقض

عن حرب .. بسبب

عن مهرجان بلا مناسبة

عن دقيق لايتأرجح فى البياض

عن مصباح يمتثل لإصبعي

عن (أزنيف) مشاكلي مع يعرب السالم(*)

عن قلقي الودود من سعدي صالح(**)

عن دهشتي من سمنة النحيل نزار عبد الستار(***)

عن تيهي في البحث عن براثا (****)

عن كل شئ

تقريبا .. وتماما

كنت أحدث .. جيبي

قلت: الذي يريد قطفي فليأت

لن آتي معي ..

الحرب: وش .... ش....ش

الحدود:

والشهامات التي جرجرتنا من ياقاتنا إلى حجابات الرجولة

سرحت حناجرها...

المنافي معدة لأسمائنا

من يزوجنا الحرف لنلد البوح؟

من يعبد الطفولة لنكبر ؟

من يوقظ أحلامنا ...؟ لنعيش

نعيش فقط ..

ياالفضيلة .. امتصصت وجعي

هل يداك

اللتان هما يداك

أبصرتا نتوءات خوفي من تراب

سيدهسني

إذا

تقدم أو .. مشي ؟!

نتوء (٢)

للنساء اللائى حلمن بى .. طعنتى

وللمسافة خلل الالتحاقات طعم البكاء .. حسب لسان أمى ،

حبيبتى لم تقل شيئاً لأننى كنت مرا آنذاك –

آنذاك –

إيه ياجداول الواجبات

إيه (حسب الدلالة القروية لهذه المفردة)

إيـــــــــه

كم مرة كنت واحدا × ٣

كم مرة أبدلت السلاح بالدخان

كم مرة تأبطتنى البندقية

سرية محمد بن القاسم عادة سر

سر ......سر ......سر ......سر ......سر ......سر ...... سر ......سر ......

سر يحاصرنى بالفضائح

أنا بصلة تدمع عينى أمى

سرية محمد بن القاسم كول قف ...

واحد ... اثنين

قف أمام الإشارة الضوئية

قف فى الطوابير

قف للمعلم ..

قف للتفتيش

قف خلف الإمام

قف عند النقطة

قف للنشيد

قف في العزاء .. العرس قف
قف على قدميك
بأية لافتة ساكفن إذا مت ..؟
مرة واحدة .. للتجربة !!

نتوء (٣)

سمنى وطنا
سأنشز رايتي خلل الرؤى
أنا الراية - أخفق ... أخفق
فهل أنت دمى ؟
سمنى أغنية تختصر الغرام
فهل من حنجرة تسعنى؟
سأكتب مضيعتى على نهد امرأة فقدت جدواى
سأفتح نافذتى على الدخان
ولن
أشذب ماكتبت
سمنى جبلاً متهدلاً
هكذا ..
اخترت أن تؤرجنى الحروف
وعامداً
لن أشذب لحية القصيدة ..!

قصة

لحـــن الأرصفـــة

نوزت شمدين

جلس بألفة بليدة على حافة الرصيف غير آبه بعيون المارة التى راحت تجوب متفحصة أرجاء جسده النحيف والمغطى بثياب رثة ناضلت طويلا من أجل المحافظة على تماسكها ، أخرج من حقيبة جلدية داكنة اللون نايا بثقوب صغيرة سوداء رصت بشكل مستقيم وشرع ينفخ فيه فيما أخذت أنامله الناعمة تتحرك فوق الثقوب برشاقة متناغمة تتوافق مع إيماءات رأسه المصاحبة للصوت الحزين الذى طاف حول الزحام ، انساب الصوت المتدفق من الناى فى الشارع المرتمى أمامه واحتضنت صدى حزنه العميق قلوب الباعة المتكدسين على الرصيف بعشوائية ملبدة بالحيرة والترقب.

لم يكن البرص المصحوب بثقل الرؤية سببا وحيدا فى تجاهله لكل مايحيطه ، فالحرب التى لم يخض منها سوى لحظة حاسمة تركته أصم ، هى التى أجبرته على قطع صلته بكل مايدور خارج موسيقاه ، وجعلته بعيدا عن العالم المتفنن فى تمزيق بعضه وبينما هو مستغرق فى مداعبة الأخيلة المتراقصة فى ذاكرته المتخمة بعذابات غدت مثل هاجس يلح عليه ويحلق به نحو مديات مشتعلة بسكون غريب ،

جلست بقربة فتاة صغيرة بدت من هيئتها التعيسة ، أنها قد احترفت التسول فى عمر مبكر وأخذت تصغى إلى ألحانه الكئيبة ناظرة إلى العابرين بشكل مسرحى كيما تتلقى العطف بامتداد يد تطفئ لهفتها فى الحصول على مايمكنها من دخول البيت الذى يرفض استقبالها دون وارد يوم يؤهلها لذلك ، استمر المشهد على وتيرة تصاعد فيه اندماجهما فى صورة متناقضة امتزجت مفرداتها واختلطت بجرح الناى المنسكب بنعومة على الوجوه التى أخذت تحملق حزينة وكأنها اكتشفت السر الذى يجعل لهذه الحياة قيمة بالرغم من الضبابية المغلفة لآمالهم الهاربة دوما ، شعر الأبرص بامتلاء روحى وكأنه تلقى شحنة دافئة من الإصرار تجعله يواصل الحياة بهدوء ، ولم يكن ليشعر بالفتاة لولا تلاصقها العنيد بجسده الخارج من رحلة - الأنا المهشمة - تساءلت نظراتهما وهى تتلاقى مضطربة بينما الزحام من حولهما يتلاشى مخلفا وراءه مساحات من الضجيج الملطخ بالفراغ كاشفا عن عرى المكان الذى يتسع ، أومأت اليه برأسها وهى تنظر الى الحقيبة التى احتضنها بين قدميه ، وبحركة لاإرادية وجد نفسه يخرج منها نايا صغيرا تلقفتها منه اليد الصغيرة وعبارات الشكر تنهمر عليه ، بينما كانت شفتاه تقاومان ابتسامة عنيدة أرادت الخروج رغما عنه ، تفحصت الفتاة الهدية مفكرة بالثمن الذى ستجنيه من بيعها وأحست بلحظات هشة من الطمأنينة سرعان مابددتها رغبتها الشديدة فى تعلم العزف على الآلة ، لشعورها الفطرى بأن الأموال التى تنتفخ بها جيوب سالكى الطريق ستنتقل بقناعة أكبر إلى كفها الصغير فيما لو اتقنت عزف الناى ، الأمر الذى سيجعلها تتمتع بمكانة مرموقة بين مثيلاتها المسخرات فى تبديد طفولتهن من أجل أن تتكور كروش مستخدميهن المتخفين خلف ثوب التعفف ، وبلهجة تسولية اعتادتها طلبت منه و هى تشير إلى الناى أن يعلمها كيفية استخراج تلك الأصوات الحزينة ، أدرك ماتريده الطفلة من خلال استرجاع صورته القديمة وهو يذرف ماكان متبقيا لديه من الدموع للحصول على مبتغاه.

وقعت عيناه على قدميها العاريتين واللتين كانتا كعصى غليظة حجرها الأسفلت

الملتهب فى الشوارع وشعرها الملتصق ببعضه كإبر بلورية تكسرت حنينا إلى قطرات ماء تغسلها ، ظل يحدق فى الناى المرتجف بين يديها فأحسه يستنجد وهى تواصل توسلاتها قال متمتما:

-إذا أردت أن تنجحي فى استدراج الناى فعليك أن تعامليه برفق وأن لاتجبريه على البكاء.

لم تفهم الصغيرة ماقاله ، تذكرت عذاباتها وهى تستلقى خلف الباب الذى اعتاد أن يوصد بوجهها كلما عادت من رحلتها المضنية بكفين خاويتين لتطرق الباب المنقوش بدموع توسلاتها كل ليلة ، بينما الرابضون خلفه ينعمون بدفء الثراء وترتسم على أجسادهم صلابة الأزقة الحجرية التى تطوف فيها باحثة عن مفتاح ذلك الباب وهاهي الآن تجد فى هذا الناى معبرا نحو آمالها الكبيرة المتعطشة الى يوم تغتسل فيه من ضياعها كفكفت دموعها بذراع اتسخت بالغبار الممتزج بالدخان المنبعث من عوادم السيارات وقالت له بنبرة متثاقلة :

– علمني كيف تفعل ذلك ..! وأعطيك نصف مايمنحوني إياه.

وأشارت له براحة يدها الفارغة فالتمعت فى عينيه المحاطتين بهالة من البياض صورته وهو يقبض ثمن ألحانه دموعا ينفقها فى شراء عزلته استرسلت بيأس ..

– هل ستعلمني ..؟

– ....!

نفضت المدينة عن شوارعها انتعاشات الخطى وانطلقت الريح كحصان جامح تجوب الشوارع الفارغة وتكنس عن الأرصفة بقايا الترقب لأحلام تعثرت وأخرى اختارت الرحيل لم يبق فى المكان الفارق بعتمته سوى عزف لأنين متقطع يطلقه الناى الصغير.

تشابكت الخطى وامتدت بخطوط متباينة خلف الرصيف المكتظ برغبات تائهة وسائرة دوما باتجاه حاجات اكتنزت فى حجرات العقل المنسية ، ومن بين الحشود الآدمية المتموجة فى تشعبها المضنى والطويل ، ظهرت امرأة بملامح فتية تسير

بتهاد كأنها تبحث عن زمن مفقود ، ممسكة بيد طفل بدت على وجهه المشاكس إمارات المرح ، بينما كانت عيناها الحالمتان تبحثان عن حلم قديم.

توزع الباعة بشكل متواز فارشين بضائعهم على طول الرصيف وصراخهم المتعب يعلن عن جودة مايباع ، توقفت المرأة بعد أن أمسك طفلها بمعطفها البني الطويل ، وبالحاح شديد جرها إلى إحدى (البسطات) وأخذ يتفحص البضاعة بعينين فضوليتين لم يكن هناك سوى تماثيل صغيرة ، وصور عديدة لممثلين مفتولي العضلات وممثلات جميلات ، إضافة إلى لوحات فنية كانت.خارج اهتمام الطفل ، كمنارة الحدباء والموناليزا وبرج أيفل ..والأهرامات ولعب بأشكال غريبة ومختلفة تمثل أدوات الحرب كالدبابات والطائرات المقاتلة والبنادق المطقطقة وعبثا حاول البائع أن يغرى مخيلة الطفل فى اقتناء شئ مما يعرضه ، سحب أمه من يدها وتنقلا بين الباعة إلى أن وقعت عيناه على شخص ذى شعر ناصع البياض أدار ظهره للزحام وعلى مقربة منه استلقت حقيبة جلدية برزت منها رؤوس عديدة لآلات خشبية أثارت فضوله ، أطلقت المرأة يده والدهشة تكسو وجهها ، التقط الطفل نايا صغيرا والتفت إلى أمه معلنا عن رغبته فى اقتنائه، ظلت الأم جامدة فى مكانها فى الوقت الذى نهض فيه رجل الناى متثاقلا من المكان الذى أدمن أنينه ، حاملا حقيبته برفق ، تلاقت نظراتهما بذاك الارتباك القديم .. وافرج عن تلك الابتسامة العنيدة التى قاومها ذات يوم ، ثم ربت على رأس الصبى الذى وضع الجهة المعاكسة للناى على شفتيه ، وقال بصوت هامس وهو يسدد نظرة أخيرة الى الناى :

– إذا أردت أن تنجح فى استدراج الناى يابنى فعليك أن تعامله برفق وأن لا تجبره على البكاء.

ثم مضى وعينا المرأة تتبعانه ، كانت متيقنة بأن الدموع تكسو وجهه الآن ، ظلت عيناها معلقتين بالحقيبة المتدلية على كتفه ، ويدها مندسة فى جيب المعطف تقبض على ناى صغير توقف عن الأنين منذ زمن بعيد.

قصة

حرة على الجسر

خيرى عباس

توقفت مرتين على الجسر متثاقلة الخطى ، قبل الوقوف الأخير في وسطه.. وبذا تكون هذه النقطة هى الأبعد عن مياه النهر فتسهل مهمتها القاسية.. والأبعد بذات الوقت عن الشاطئين لتضاف سهولة أخرى..

ولكن !

كيف سيواجه أشقاؤها عامة الناس؟ .. ويواجهون الأصدقاء ؟

لاسيما أن أعدادا من سكان الديوانية قد نزحت إليها من القرى والأرياف ..

ولو - لعنت الشيطان - وعادت بخفى حنين إلى المدينة ، كيف ستواجه الأم التى طالما حذرتها منه؟ إذ هى على دراية أن السفر هاجسه بقصد الدراسة أو الإقامة أو مايبرر له هذا ..

عدا أن الكثير من شباب الحى يمنى النفس بها ، وهى لن تمنى النفس إلا به ، لذا لقبتها أمه - أكحيلة - عن استحقاق ، فبعد مضيها لبعض الوقت فى غرفته تنهض لتضع لمساتها على جميع مقتنيات الدار ولوازمه لم تدع صحناً.أو قطعة ملابس

ألا وغسلتها وبالذات ملابس أمه .. التى أحبتها بصدق .. والحق ، أنها كانت كحمامة بيضاء هادئة ووديعة .. كغزال برى فى لفتاته كثيراً ما أضافت إلى المنزل هالة رائعة بتشكيلات ملابسها وتسريحات شعرها..

كان الشريط الأسود بعرض إصبعين المطوق لجيدها قد أضفى عليها الكثير الكثير .. كانت واثقة الخطى فى المنزل .. وواثقة منه تماماً .. فعما قريب ستأتى رسمياً إلى الدار، وبذا تلقم لأفواه الماطة للشفاه هزءاً بحجر .. فأمها حين امتثلت لإرادتها قالت ذات صباح : إنها كفيلة باسكات أشقائها.

كانت الأيام مجهولة .. ومتسارعة ..

مر عام حين أنهى الدراسة الإعدادية ، كثيراً ماكانت تأتى خلسة كعادتها .. تمضى أوقاتاً قربه، وبذا عرفت المقادير وحاجيات طاولته والزاوية الأثيرة لها ..

لفت نظرها ذات بيوم أوراق رسمية وجواز سفر ، توقفت عند ورقة قد دونت بآلة طابعة انجليزية كانت قد صدرت منذ شهر من رئاسة جامعة أوروبية متضمنة فحوى قبوله. للدراسة فيها .. قرأتها بامعان بعينين دامعتين من الخوف والفرح .. فرحاً لمستقبله وريبة على مستقبلها ..

– حقاً يامعن ستسافر ؟

– نعم أيتها الغالية ، لأجل عينيك أفعل كل شئ !!

– وإن مكثت هناك ؟

– ....

– وأن الجميلات هناك كثيرات؟

وأنت رجل شرقى ؟ ؟

– لاأيتها العزيزة فأنا معن .. ونحن معاً إلى الأبد.

لن تفصلنا المسافات ، وخطوط العرض والبحار ..

تذكرت هذه الأحاديث وغيرها التى مضى عليها عقد من الزمن.

تذكرت . وتذكرت أشياء وأشياء كثيرة بأمل قديم وخوف جديد عندما أقلتها

الطائرة مع أمه إلى المدينة التى مكث فيها ، حيث استقبلهما فى مطارها ببلاهة وفتور هو وامرأة شقراء إذ فوجئ بها مع والدته..

على مضض ذكر لهما بأنها زوجته ، حين دوهم بسؤال وأن الطفل الذى يتوسطهم هو ولده ..

أمضتا ليلة فى البكاء بخفوت فى شقته .. عند الصباح أقلتهن الطائرة إلى بغداد حيث جسر الأحرار يتوسط المدينة..

شعر

حروف الموت

عبد الستار جبر الأسدى

أحد مات هنا
ولاشئ منه سوى رائحة جوربه العتيق .
عيونه يقظة حولنا
ولانستطيع رؤية أنظارها المخططة بالرحيل
تتلفت ابتسامة من نافذة إلى حائط
فتسقط على جناح فراشة متعبة من الضياع
تستل من قلوبنا خيوط الدهشة
تلفها حول صرته الهزيلة التى رماها من السقف عصفوره الجنوبى
تفتحها أنامل استغرابنا
فما نجد غير بقايا خبز يابس وفتات كلمة وحيدة بعثرت الريح
حروفها فى كل مدينة ..

يرتعش الحرف الأول من الانتظار
فيحزم حقائب برده
تتبعه نوارس النهار الذابل
فينزوى ساحل الدقائق الأخيرة فى لوحة مهملة على حائط النسيان
هكذا تترك الأيام أحلامنا مصلوبة
وعلى كاهلنا تنسى هموم الزمن المر
ولاوقت يسرقنا من الرصاص والكلمات الثقيلة
لاربيع يطرق أبوابنا
فنذوب مثل شمعة على يد جدة قتلتها حكايات الخريف..
يدنو الحرف الثانى من سرب الجثث التى سقطت من على أكتافنا
يتلمس وجوههم الفارغة من الحياة
فترتجف يداه من ملامحهم المكتظة بالذكريات
أطفالهم يتدثرون بصمت الليالى الكئيبة
ونساؤهم من الوحدة تحولن إلى قوالب من ثلج ذابت فى زوايا غرفهم الضيقة
أما دفاترهم العتيقة فتطايرت أوراقها فوق سطوح أيامهم القاحلة
صحراء من الحسرة طفولتنا
صحراء كل أيامنا القادمة
وفى كل شبر تبصره عيوننا رمال من الأسى

فمتى يظهر زمن الواحات؟
من تابوت القلب يقوم الحرف الثالث
أربعون عصفورا يحملون قميصه الملطخ بالفقر
يرشون ندى تأتأته
ثم يرسمون على الأفق جسدا بلا رأس ولاقدمين
فيهرب الهواء من رائحة الانفصال
جراد الفساد يزحف باتجاه البيوت
يلتهم ماتبقى لنا من الشرف
أما الناجون من الانجراف فيكسر أغصانهم
وريثما نعاود الوقوف سنبقى طويلا بلا خطوات
وانحناء الظهور سيصبح علامتنا الفارقة..

قصة

انتحار فوق صفيح ساخن

معن عبد القادر

جلست إلى أصة نبتة ، وردة وأوراق خضر تعيش فى الظل احتفظت بها فى شباك غرفة الجلوس ، هالنى أن رأيت التربة وقد أصابها يباس مقحف . يبدو أننى قد نسيت ليومين متتاليين من أيام الصيف القائظ رشها بقطرات من بلة ماء إما بسبب انشغالى بآفة العيش اللعينة، أو لعبثية أصابت ذاكرتى التى ازورت واقوعرت ..!

دققت فى النبتة النظر فرأيت ذبولاً يصفع خد الوريقات ، واصفراراً بدأ يلون بشرتها التى كانت خضراء . فأخذت أواسى صبرها ، وأهدهد كتف وردتها وأسقيها من سائل الانتظار " الأيوبى" وأصب فى حلقها من دواء الفرج " اليعقوبى" ، وأرفد عزيمتها كيما تفوض أمرها إلى الله مثل كل الصالحين عندما يمسهم الضر ويقرصهم الأذى وتنوش ذيول ملابسهم حبال من مسد..!

سمعت لهيب أنفاس الجذور تتصاعد من بين ثنايا التربة، ولسعات الألم تفرقع من حول أطراف الساق . أما الأوراق فكانت تطاول نفسها لتذرف دمعة حزن واحدة فلم تقدر .. فحولت كمدها إلى ذبلة عين والتواء عنق واعوجاج فم وأنات مكظومة لايسمعها سوى الذين تعلموا قراءة لغة المظلومين ...!

اقتربت من النبتة أكثر وفى نفسى أن أكفر عن جريرتى وأخفف من غلواء فعلتى فقمت أحكى لها عن الماء ، ذلك السائل العجيب الذى يصير فى السماء غيوماً وفى الأنهار شلالاً وتيارات مسرعة مبطئة ، وينقلب فى البرادات إلى قوالب ثلج وآيس كريم وموطا . ثم حكيت لها عن مركبات الماء السحرية الذى قطرة واحدة منه تشفى العليل وتروى غليل التائه فى الصحراء . المادة التى مركباتها ذرتى هيدروجين وذرة أوكسجين وفوقها أملاح وكبريتات ومعادن بنسب مقدرة ومحتومة ومحسوبة بأمر الله.

السائل الذى إذا ماجرى فى أرض صار الوادى وديانا والنهر أنهاراً دفاقة تصب فى البرارى وفى الصحارى فتنقلب إلى حدائق أعناب غناء وجنان حسان منظومات . كنت أحسب أن كلامى الموصوف والجميل عن الماء سيصب فى قعر أذن النبتة دواء سحرياً فيعدل من انحناء قامتها ويزين من شكل ساقها ويلمع من اخضرار وريقاتها .. لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، فحزنت أشد الحزن ولبسنى لبوس الغضب والنكد . يبدو أن كلامى عن الماء ، وعن صناعة الكلوروفيل وعن تحلل الضوء لم يفت فى عضدها فبقيت عصية على المعايشة والتآلف والرضا لتسرع إلى الذبول .. وأنا أتمادى فى الموعظة الكلامية ...!

فلما عدتها فى المساء هالنى مارأيت .. فقد انطوى الساق على الساق ، وانكفأت الذابلات على أختيها ، تخوتها فى مياسمها ، مصفرة ، محترقة الجوانب والأعالى :

يبدو أن النبتة ماسمعت كلامي الجميل عن الماء وأوصافه ..!

لقد لامنى بعض الأصحاب على فعلتى وهجونى بسبب بطء إغاثتي ، فسكنت على سياط تقريعهم وصبرت على عسف بلواى.

وفى اليوم التالى قمت إلى صنبور الماء أريد حل وثاقه ، فقد حل الزنجار فى بطنه من الداخل من هول الفراق وغادرت الكهرباء أعشاش أسلاكها ..

عندها تذكرت جواب " ديوجين" عندما سأله الاسكندر" عن مطاليبه وهو يئن فى الجب فى قيد ثقيل.

دعنى أرى الشمس بنفسى .. فكفانى كلاماً عن النور ..!!

شعر

شئ ما

فيصل القصيري- نينوى

لحم الحائط شئ مامنكسر
والشارع طفل يبحث عن أبويه
وهناك على الكرسى
بقايا إنسان مغترب
ضاعت خلف العصف ملامحه
فتمنى أن يحجز
تذكرة
تذكرة لدخول مدار النسيان

قصائد الأفق

فى الأفق المنسوج بخيط دمى
كبلت جنون البحر
وأطلقت جموح الحجرات
وكتبت حضورى
فى دفتر نيسان

* * *

فى ذاك الأفق امرأتان
واحدة من ثمر الرؤيا
والأخرى من نزق الألوان
حبهما أكبر من أن يكتب كالإعلان

* * *

فى ذاك الأفق
أكون أنا الأرضى
لست أنا الأرضى
اتخذ النجم بيوتا
ومرايا
ونساء
وأقود الغيم إلى المنفى
وأقود الشمس إلى البشرى
كى تتولد معجزة أخرى.

لاقتام .. ذاك اسمى

لافضاء قبلى
لافضاء بعدى
المدى دم على الرياش
بينما يساقط بيض الملوك
فى سلة الفراغ
ولاقتام .. هناك دمى
يتفتح كالوردة الأولى
فى صباح النشيد
لاقتام .. ذاك اسمى
نجمة مهيأة للخروج
من طلقة كالعواء

شـــعـــر

يوما إثر ليل إثر حادثة وفاجعة أقل فجيعة

ريم قيــس كبــة

قال الطبيب مطمئناً قلق البنين على أبيهم
لاتخافوا قد يموت بعيد شهر أو يزيد
قولوا له ألا يخاف فلن تؤلمه الإبر
- اشرب عصير الفا .....جعة
ستكف أنسجة الدمار عن التناسل
قد تعيش فتشهد الحرب الأخيرة
قد تموت ، فلاتراها
لاتنم إلا قليلاً
قد يجئ الموت أسرع من تنفسك البطئ..
كل ماتشاء
وكن رحيما
فالجيوب شحيحة
والبال مملوء بآلاف التفاصيل السقيمة
..
هانحن نحن

من التراب حياتنا مغبرة
ورئاتنا ملأى
وأعضاء الحياة بجوفنا ملأى
بكل رمال هذا العصر
قال: استأصلونا!
نأتى إلى الدنيا فتملؤنا بكل تلوث الأفكار
نرحل نادمين على الرحيل
ماذا نقول عن التوهم والطفولة ؟
أى أحلام مضرجة تعيش على ترقبنا؟
طفيلى هو التوقيت فى أرحام هذى الأرض
يشرب كل نسغ فى تلهفنا
وصوفى تشبثنا بتربة ماتبقى فى جوانحنا
..
هنا .. فى الرأس
زوبعة من الأفكار يمسخ بعضها بعضاً
تحاول أن تحيد الرأس
تفصله عن الجسد المدمر
فى الجنوب :
أصابع القدمين تذبح كل يوم إظفراً أو جمهرة
فى القلب :" باء الفاتنة
حسناء من ألق تسوى شعرها
وتعطر النهدين .. تلبس أفخر الأثواب
لاينتابها وجع ، صداع ،
أو تحس تورم القدمين
لاتصغى لغير عقارب النبض التى تمضى بها
.. عكس اتجاه السير .. دوماً

لايهم الآخرون
فالآخرون تعلموا فن التقافز ، أسرفوا
فى حبهم للشمس والتحليق
حتى أنهم مدوا شرايين الشعوب
ليشربوا نخب التصاعد
والنفايات التى فى جوف خاطرهم
رموها فى ضمائرنا
إذن .. لاتبتئس أن تفقد الأرحام دورقها
بفعل تسلط الأشياء
لن تضع النساء سوى قرود .. أو بغال
.. ذاك أجدى
..
فاقترف وأداً سريعاً للأجنة
اقتلوا غودو..
قبيل ولادة الأيام
غودو قد يجئ ملطخاً
غودو
سيمقمنا
بقايا
الانهيار...
***

شعر

قصائد قصيرة

نجاة عبد الله

فصول

مرّ

شتاء كاللص

قبل الشبابيك

ومات

نمو

مادمت شجرة

أيتها الأغصان

لِمَ

تحملين الحصى

وتثمرين

عرش

تحيا ملكا

أحيا رصاصة

من يهب لنجدة المجانين

في

هذا الصباح العاقل

لقطة الكترونية

كنت أظهر في التلفاز

قطة بأصابع عنقاء

صفعت الضوء

إذ أخطأ

في تقديم فرحي

في أول عرض للأحزان

سلام

أسفي عليك

أيتها الحروب

وأنت تتبخترين

بغير أعداء

حياة

لاأمتلك بقرة
لأعيش طويلا
بين الأشجار

طفولة

هل عرفت الآن
بأنى فستان عقيم
أيتها الدمى

ذوبان

أعتذر عن
إكمال المسير
إذ
أخلع قفازى
وأحتضن الجليد

براءة

أحب
على طريقة القطط
وأحلم
على طريقة الفراشات

حقيقة

تلك الصدفة
اللاحدود لها
من أين سأقفزها

ذكرى

ياللأشجار
ونحن نثقب الذكريات
بالأعوام المرة
ونرمل
صحراء نسيانها

وهم

لم أحلم
وأنا ممسكة بالأرض
أن كلينا سينهض
ويعلق
قبلة على الباب

شعــر

أصـــابع القــافـلة

عبد الرسول عداى

على غصن يستحم بالعاصفة
تظل القافلة
تزهر بالأجوبة
ولاسؤال يهمه الحصاد
كتحفة من تمائم التراب ترفع ملاذها
ملاذها كف من الجدب
وعينان من الجمر
وأثداء من الهواء

* * *

وحين تطلق أشباحها إلى ماقى المدن
يوخزون ابتذال الاهتمام
يوصدون أصابع الاتهام
ويقرأون بؤرة الاجحاف

فى وجوه الكلام.

هل يولدون ؟

يضنيهم تجمهر القيود

تلتهم ألسنتهم أجوبة الصدأ

تلسعهم أفاعى الخيبة

وحده الهدهد من يعود

يؤجج فى حوافز الرمز بداهة الأمثلة.

*　　*　　*

سيل من الجنائز تولده القافلة

على كتفيها ترفرف جدائل الحرمان

وشفتيها بلاغة مسرجة

آلام الطفولة

تمرغ أثداءها بالرماد

أهكذا تستبسل فى احتضان السؤال؟

دموع تُطفأ السنين

كؤوسها عطشى

ورمالها فى الحقائب

يودع الأجنحة.

*　　*　　*

جلى أن القافلة تحتضر

واتجاهها جسر متجمد كقبلة الصلاة

وأفاعى الجفاف تنهش ليلة زفافها

وتغزل القيود صراخها

تهشمها زركشة الكفن

وعريسها خفاش مبطون
وأنا حائك أعمى
وأنت شاعر أخرس
وفى قرار البتر يحترق إجماع التبن

* * *

إن فاتك فاتك العرس لاتفتك المجزرة
ماتزال حوافر الحرمان توسع المقبرة
ماتزال مآثر السياط
تمارس ثقافة العولمة
والقافلة عارية
سوى من لباس الجراح
وعلى مرآى عشرة أعوام موتورة
تصلب الاتجاه

انتهى الملف

تحيـــــة

محمد على طه وأطفال فلسطين:

يلـونـون ســماء القــدس

فريدة النقاش

اعتدنا لزمن طويل ألا لانرى فى إبداع الفلسطينيين الأدبى سوى الشعر فى غالب الأحيان ، وبقيت أسماء توفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين وأحمد دحبور ومريد البرغوثي وفدوى طوقان وغيرهم تزيح إلى الصفوف الخلفية أسماء قصاصين وروائيين كبار قدموا للمكتبة العربية نصوصا مهمة عبرت عن محنة الشعب الفلسطينى فى إسرائيل وفى الشتات والأراضى المحتلة على حد سواء بفنية عالية أمسكت بالروح المأساوية وجذوة المقاومة معا ، لكننا بقينا نحتاج أكثر إلى النشيد والقصيدة فكان أن ظلمنا إميل حبيبى ويحيى يخلف وسمر خليفة ومحمد على طه وآخرين.

ومحمد على طه هو أبرز كتاب القصة القصيرة بين الفلسطينيين الذين بقوا فى أرضهم بعد اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨، وهو أشهرهم وواحد من أكثرهم تكاملا فنيا وأغزرهم إنتاجا وقد تكونت خبرته فى مقاومة الأوضاع الظالمة التى يعيش فيها الفلسطينيون فى الدولة العبرية منفيين فى وطنهم وقد تعرض للسجن والملاحقة أكثر من مرة وصادرت السلطات الإسرائيلية مجموعته " وردة لعينى حفيظة " واعتقلته بسببها.

" والولد الذى قطف الشمس" هى مجموعة منتقاة من كل أعماله نشرتها فى القاهرة دار قضايا فكرية ، وكتب لها الناقد الكبير محمود أمين العالم مقدمة قال فيها " إذا بى أشعر منذ البداية أننى لاأكاد أقرأ، بل أنصت فحسب إلى من يهمس فى أذنى قائلا دون أن يقول:

وحدوا الله .. كان ياما كان .. ويكون كذلك حتى الآن .."

" محمد على طه إذن هو الحكاء الشعبى الذى يروى عن وقائع وأحداث صغيرة وكبيرة أبطالها أناس آخرون يتفرج هو عليهم ويسخر منهم أو يتعاطف معهم ، وهو أيضا الراوى المتسلط العليم بكل شئ وهو ضمير المتكلم المفرد المتورط فى مرارة التجربة والذى ينضج فيها ويراقبها فى آن .. بل هو أيضا المسلح بالوعى الناقد الثاقب غير الراضى عن حال أهله الساخر منهم رغم محنتهم ، ويقف وعيه الناقد هذا فى مواجهة الوعى الزائف والأفكار المشوشة .

فى اللجنة تبدأ القرية تمردها ضد رمز السلطة باختيار " بن رباع" البسيط " بن راعى عجال بلدنا أيام كان لبلدنا عمال ومراع .."

وتتردد هذه الجملة على امتداد النص كأنها ختام المرثية الطويلة المضمرة التى لم نقرأها أو نسمعها لكننا نشم رائحتها فى حالة القرية الفقيرة .تختار القرية بن رباع فى مواجهة المختار " العمدة" حسن عبد القادر الميسور الذى يستغل القرية ويصادق السلطات ولم يستطع أحد أن يعانده طيلة عشرين عاما لأنه كان قادرا دائما على استعداء الأقوياء .

ولاينسى الراوى الذى يطل كحاك على الربابة أن يؤكد لنا على أن تمرد شباب القرية قد حدث فعلا حين يقسم بحياة سيدى الخضر .. ويأخذ فى الحكى بادئا: وحدوا الله..

القرية دون شارع مرصوف وقد اتفق الجميع على توفير الأموال لرصفه وانتخبوا لجنة فشل المختار فى كل انتخابات لمواقعها فكان يحصل على صوته فقط

رغم أنه " بن حكومة وصديق الشاويش حاييم وصاحب سالم ضريبة الدخل" ويدافع عنه ويتحالف معه رجل الدين الشيخ مسعد.

لكن المختار لن يسكت

" وعلى ذمة يوسف مسعود" إن صاحبه ابن رباع عندما عاد أمس إلى داره وجد جدته العجوز العمياء تقص لأخته الصغرى حكاية الحية الرقطاء التي كانت تخرج كل سنة في آب وتفرغ سمها بأول من تصادفه من أهل بلدنا.

وزاد عدد ضحاياها بمرور السنين حتى تذمر الجميع وهجم عليها رجال القرية بالعصي والحجارة وأجبروها على الهرب والاختفاء في كهف أم عيسى.

وتعتقد جدة بن رباع أن الحية الرقطاء مازالت حية ترزق وأنها تنتظر الفرص الملائمة لتهاجم الناس من جديد .."

إنها الأمثولة التي تكشف دلالة القصة ، وتحذر الساعين إلى التغيير من أن العدو ليس في الخارج فقط ولكنه في الداخل أيضا وإن اختبأ لحين وذلك اتساقا مع الروح النقدى الذى يأبى أن يرى في الوطن الجريح كلا مثاليا صافيا متجانسا وجميلا وجديرا بالعطف وحده بما أنه ضحية.

وفي" المعركة" يلجأ ممثل العدو للعب على التناقضات الصغيرة فيما بين القرى والعائلات والجارات ويحرضهم ضد بعضهم البعض فيستجيبون ويتعاركون ، ويطلب منهم ممثل السلطة إعطاء أصواتهم الانتخابية للحكومة بوعد أن يكون منهم رئيس مجلس محلي وأن يعين بعض أبنائهم في البنوك.

" وجاء اليوم الموعود وأعطينا الأصوات كاملة .. والحقيقة أن الجارة التحتانية مانكثت بوعدها أيضا..

وهاقد مضت سنة – ياسيدى – كما ترى وبلدتنا مازالت كما هي .."

ينتظم هذه المجموعة خيط واحد متصل هو الفقد .. القرى التي دكها الاحتلال الأماكن والأشجار التي اندثرت وبقيت حاضرة في الصور تنادي أصحابها، البيوت التي يحلم بها سكان المخيم، فالمخيم هو غالبا المكان الذى يكاد يتمتع بسلطة وجودية

على مشاعر الناس وتطلعاتهم وملقهم .. هو أيضا حالة العبور والانتقال والتأهب لشئ جديد .. قد يكون هذا الجديد فقدا آخر أو ربما معركة مع العدو ضد الاستيلاء على الأرض أو نهب حقوقهم ، أبطالها هم المزارعون والعمال والطباخون والمجارون ، وهى الأعمال التى لم يتح لأبناء فلسطين تحت الاحتلال سواها..

ثمة أيضا رحلة .. هى رحلة الوعى من التقليدى الى الجديد .. ورحلة الفعل من الإستكانة " اليد التى لاتستطيع عضها بوسها" أو إلعب وحدك تكن راضيا.." إلى الرفض وبدء المقاومة حين يولد القادة من بين شباب القرية ومراهقيها ، ونتابع نحن عملية الولادة خطوطة خطوة ، ويحدثنا الراوى عنهم كأنهم أصدقاؤنا ومعارفنا القدامى " وصلت إلى أم الحجارة ثلاث دبابات فجرحت عائشة وكسرت ساق حنا .."

وهم يكتشفون " أن الخواجة يامحترم . يخاف من العصى والحجارة أكثر مما تخاف جارتنا المدينية حرمة يوسف العلى - من النار.."

ونكتشف نحن القراء أن للحجارة تاريخها الخاص مع شعب فلسطين .

ويستخدم الراوى أيضا تقنية الإسناد والعنعنة ليقنعنا بصدقه ويدخلنا إلى أجواء عالمه بحميمية ،، فعن فلان.. عن فلان .. عن..

ثمة علاقة نصية جامعة تنسج خيوطها وشائج مع كل من القرآن الكريم والحكى الشعبى إذ يستوحى الكاتب بعض الجوانب الفنية أو الفكرية فى العالمين تجمعه بهما أو بعض الجوانب تضعه على النقيض منهما فيكون هذا الامتلاء الدلالى لبعض الشخصيات والذى يرفعها إلى مستوى رمزى شأن حفيظة فى " وردة لعينى حفيظة" فهى" كلما طال الزمن ازدادت حفيظة حلاوة ، وكأنها تختلف عن كل بنات جنسها وكلما طلع جيل فى بلدنا تعلق بها كأنها منارة جمال تشد إليها العيون والقلوب ، وماتجعد لها وجه ولاشاب شعر ولاترهلت إليه .." ونستطيع أن نرى فلسطين فى " حفيظة" لاحظ أيضا اسمها ، وحفيظة ليست ولادة بالمعنى

البيولوجي ولكنها أيضا ليست عاقرا .. إنها الموجة التى ينشدها البحر والشباب الدائم الذى تتعلق به القلوب وهى أيضاً البنت التى تحلم بدار وبيت .. وعالم جديد آمن.

وللسرد الشعبى إضافة إلى كونه أداة بناء وظيفة التعبير عن المواطن الفلسطينى اللاجئ فى وطنه فى خصوصيته الاجتماعية والتاريخية وفى نضاله من أجل البقاء .

والسخرية هى أداه رئيسية فى بناء هذه النصوص .. ففى خضم الجدية الشاملة حول تقييم ركاب الباص لموقف الشاب فارس رتيبة " البولشوفيك" الذى تعرض للضرب حتى يتوب " انقسم ركاب الباص الى فريقين فريق يؤيد فارس رتيبة ويؤيد عاجلا أم آجلا .. وفريق أكبر يعارضه ويؤيد عرب جرب .."

وفى وردة لعيني حفيظة " أما على الطرف الآخر من الجبهة فيقولون - والحديث ليس مسندا - إن السكر قد انقطع من دكان حسن الدرويش"

المدينة فى هذه المجموعة هى مصدر للمتناقضات لأنها موضع الحداثة ومنها يأتى الغريب المجهول العدو" فى ذلك الصيف ياسيدى وصل رجل غريب من المدينة كما يظهر من لباسه وكلامه - إلى بلدنا - كان يركب سيارة حديثة .."

وفى كل من " الولد الذى قطف الشمس" و" العلم" إشارات للمستقبل ذات بنية شعرية مضمورة وكثافة دلالية آسرة ..

ياقمر وجه حبيبى أجمل من وجهك

حبيبى ذكي وأنت غبى

حبيبى شجاع وأنت جبان

حبيبى يقاوم الاحتلال وأنت تنير على الجميع:

ثم:

سألته متى؟

أجاب: حين يقتل الشاطر حسن الغولية

حين عدت إلى البيت تذكرت شعره وعينيه وأنفه وأنا أرسم صورة الشاطر حسن وهو يطعن الغولية فى صدرها ورسمت فى طرف الورقة شمسا مشرقة ودارا..

* * *

تحسست رأس البصل البلدى فى جيبى

أغلقوا مدرسة

وفتحوا سجنا

وفى" العلم" قصة تحول طفل فلسطينى طلبت إليه مدرسته أن يأتى بعلم إسرائيل إلى المدرسة ليرفعه فى عيد تأسيس الدولة وهو يريد العلم وتمنعه أسرته من الذهاب إلى المدرسة لأنها لاتعرف كيف تشرح له الحكاية الموجعة .. لكنه شأن كل الأطفال الفلسطينيين يكبر فى الألم .. فبعد مجازر " صبرا" و"شاتيلا" " عاد خالد والفرح يغمر وجهه والحياة تتدفق أمامه ودفتر الرسم فى يده الملائكية.

انظروا!!!

ونظرنا..

علم ذو أربعة ألوان ساطعة مكتوب عليه فوق الرسم بخط تلميذ فى الصف الأول الابتدائى " من الناصرة الى بيروت .. شعب حى مايموت.."

تبقى ملاحظتان على هذه المجموعة القصصية الجميلة القوية : الأولى تتعلق بعدم نقد الراوى لجماعته التى سخرت من فارس أبى يعرب الذى كان يكنى بأمه ويسمى فارس رتيبة.. إذ يخرج الراوى من جلد الناقد للمجتمع والساخر منه إلى المتمثل والممتثل تماما لأفكاره حين يرى أن فارس رتيبة قد استرد شرفه بازاحة اسم أمه واستعادة إسم الأب بعد أن أصبح مناضلا وذلك رغم أن الوعى الجديد يصارع داخله حين يعبر عن إعجابه باتهام فارس للمختار بأنه زلمة حكومة وفاسد "

جميل جدا أن يتشابى الانسان على القطوف العالية" لكن هذا الوعى الجديد والناقد لايصل أيضا إلى نقد فكرة اقتران اسم الأم بالمهانة . وهو دليل جديد على أن مسألة المرأة تظل من أعقد وآخر القضايا الكبرى فى التحرر الانسانى التى تلقى العناية خاصة من قبل الرجال حتى التقدميين منهم.

أما الملاحظة الثانية فهى تخص تسلل روح المقالة السياسية أحيانا فى نسيج بعض النصوص فلا تتيح نموا طبيعيا وحرا للنص بما يسهم فى تفعيله فنيا.

الولد الذى قطف الشمس

جلست على خشبة من جذع زيتونة رومية وبدأت أجلى الصحون والفناجين والملاعق بعد أن تناول أهلى طعام الفطور . هذه الجلسة فى صحن الدار جزء من حياتى . نظرت إلى الشمس المشرقة التى تداعب أشعتها التشرينية الدافئة جسمى وابتسمت . وعادت يداى الطريتان تداعبان صحنا . دندنت بلحن لمارسيل خليفة .

تحسست بيدى المبتلة بالماء فرخى الحمام فى صدرى ونظرت إلى الشمس المشرقة مرة أخرى . لقد قال لى حينما ناولته الزجاجة: سأقطف الشمس وأضعها فى مزهريتك !! كل شئ طائع لهذا الولد . وأطوع الأشياء له لسانه الذى يختار التعابير الشعرية الرائعة فينقذنى من عالمى القاسى ويغرس فى قلبى حب الحياة . هل يعرف أن المزهرية الوحيدة فى دارنا بسيطة جدا فقد صنعتها بيدى فى دروس الأشغال المدرسية ولاتعرف إلا الأزهار البرية مثل النرجس وعصا الراعى وشقائق النعمان والطيور؟! الناس فى المخيمات لايشترون الأزهار ولايتهادونها فى أعياد ميلادهم أو أعياد زواجهم . لعل والدى نسيا يوم زواجهما . وأنا لاأحتفل بعيد ميلادى فهذا ترف لايحتفل به ولد أو بنت فى المخيم.

متى تكون عندنا دار؟ دار مثل الآخرين ؟ مثل الدور التى أشاهدها فى المدينة . ومثل الدور التى قرأت عنها فى الكتب . لماذا لاتكون لى غرفة خاصة بها سرير ووسادة وشباك له ستارة أزيحها فى المساء ، وأناجى القمر الفضى؟ لماذا لاتكون لنا دار فيها مطبخ وحنفية ماء ساخن ومجلى رخامى .. أنظف الصحون والفناجين وأرتبها عليه!!؟

قال لى : سأقطف الشمس وأضعها فى مزهريتك !

* * *

سألنى : ماذا يعمل أبوك ؟

– يبنى لهم البيوت والملاجئ.

– فى كفار سابا أم فى تل أبيب؟

– وفى كريات أربع ، أيضا؟

نظر إلى شعرت بخجل داهمنى .. لماذا تبنى لهم ياأبى البيوت ؟ لقد هدموا بيت صديقتى نجوى . وبيت حسن الفران . لكنه أنقذنى عندما قال: أبى يزرع لهم الخضار ويتعهده . ويجنى الثمار لهم أيضا.

* * *

بعد الدروس لعبنا معا . صبيانا وبنات . لعبنا ألعابا متنوعة مفرحة مضحكة مسلية.

هذا الولد يعرف ماذا يفعل . يعرف كيف يقودنا . ويعرف كيف يكسب ثقتنا وحبنا.

قال: تعالوا نلعب « عسكر ووطنية » !.

اللعبة جديدة ، لانعرفها ، ولم نسمع بها . ولم يعترض أحد منا .

قسمنا قسمين . فريق العسكر وفريق الوطنية . تزعم فريق الوطنية وقدت فريق العسكر.

صحت " بأعلى صوتي برطانة: ولاواخد في شارع ! وزأرت كالسيارة العسكرية . آسفة. أخرجت فحيحا كسيارة ذات نجمة سداسية.

سرت ولحق بي فريقي . صرنا نغني . ونطلق رصاصاً وهمياً وبعدئذ هتفت:

يروشلايم !؟

- شلانو.

- بيت ليخم؟!

- شلانو.

- حفرون ؟!

- شلانو.

- يريحو ؟!

- شلانو.

- لعربيم؟.

- همدبار .

وسقطت الحجارة علينا كزخ المطر . تفرقنا بسرعة اختبأت وراء سور الدار القريبة . شاهدت زميلنا سامي يحتمي بجدار أحد البيوت . صحت أداعبه . موشيه إوع ! الحجر أعمى .

أجابني : أنا مش بخاف !!

بدأ سامي الدلوعة يتقن اللعبة. وفجأة صرخ سامي متألماً: رأسي .. رأسي !!

أيقنت أنه أصيب . هرعت إليه . كان الدم يرسم خطوطاً حمراء معوجة على وجهه . ولما شاهدني قال: إحنا قلنا نلعب لعبة ، وثابت حوّلها جد.

* * *

كلما ألتقي بسامي أحييه بالجملة التالية : إحنا قلنا نلعب لعبة ، وثابت حولها جد ؟!

ينظر إلي بعتاب ، فأضحك . وأقول له: خزجك ياعسكر الاحتلال!

فيغضب ويهجم علي ليصفعني ، فأعدو ، ويعدو ورائي.

* * *

سألته . متى ؟

أجاب: حين يقتل الشاطر حسن الغولية.

حين عدت إلى البيت تذكرت شعره وعينيه وأنا أرسم صورة الشاطر حسن وهو يطعن الغولية في صدرها!!

ورسمت في طرف الورقة شمسا مشرقة ، وداراً و.. و.. لن أقول لكم.

إحزروا !!

* * *

لو وضعوا رجليك بالفلق ؟

– لن أعترف.

– لو غطسوك بالماء البارد؟ – لن أعترف.

– لو كووك بالكهرباء ؟ – لن أعترف.

– لو قلعوا رموشك رمشاً رمشاً – أي .. أي .. لن أعترف !

– لو أدخلوا عصا في شرجك؟ – أبداً أبداً لن أعترف.

– لو استعملوا كل وسائل السافاك ؟ – لن أعترف .

– وماذا أيضا؟ نسيت . ماذا بقي ؟

ابتسم وقال لي : قولي :والسي . آي . إيه ؟

قلت : والسي . آي . إيه ؟

قال بعزم : لن أعترف.

نظرت إلى الزغب في ذقنه . تخيلته ملتحيا مثل تشي جيفارا. تمنيت لو أقبله . رقص قلبي !!

ثابت رجل.

ثابت لن يعترف.

وهذه اللعبة لاأحبها فهى حزينة وموحشة.

* * *

وقال بحزم: تتولى عبلة المنطقة « رقم أ» من المسجد حتى بياع الفلافل . وتتولى سميحة منطقة السوق . ويهتم سامى بشارع الصياغ . يجب أن تمر الأمور بسرعة . علينا أن نتفادى النقاش . نلتقى فى العاشرة فى ساحة الحارة الفوقا . احضر طابتك ياسامى !.

وانطلقنا .

شعرت أننى كبرت فجأة . أنا سميحة بنت عادل فدائية مناضلة تقاتل جيش الاحتلال بضباطه وجنوده ودباباته وطائراته وصواريخه لتصنع الفجر. ولولا التعليمات والإنضباط لقفزت فى الشارع وصرخت ليسقط الاحتلال! وتخيلت العلم ذا الألوان الأربعة يرتفع عاليا على بناية البريد .. وكدت أسمع طلاب صفى ينشدون فى الصباح فى ساحة المدرسة« بلادى .. بلادى ..»

دخلت الحانوت الأول . كان فيه ثلاثة زبائن . الرجل فى عمر والدى . والدى الذى يبنى لهم البيوت والملاجئ لنأكل خبزاً . وجه التاجر أبيض محمر . شعرات بيضاء تزين فوديه . ملابسه أنيقة . حذاؤه لامع كشعر رأسه . خرج الزبون الأول . ملابس صوفية حريرية . رجالية ونسائية ، توكلت على الله . الدين ممنوع والعتب مرفوع . شعارنا الأمانة ، ابتسمت ، لابد أن ربحه كثير . الزبائن لايفاصلونه وكلمته واحدة . خرج الزبون الثانى . نظر إلى وابتسم كأنه يشاهدنى الآن . هل يوحى منظرى أننى سأشترى فستانا ثمينا؟ ولماذا لاأشترى هذا الفستان؟ مخمل عنابى . إنه يلائمنى . ثابت ، ياثابت ! لماذا لاأشتريه ؟ تشترينه ؟ أنا .. حسنا . حسنا . لماذا لاأقدره ؟

- وماذا تريد العروس ؟

صحوت من أحلامي . اقتربت منه . لفظت الكلمات كأنني أهمس همسا . نظر إلي . تأملني بقلق .. ربما بفرح لا .. ثم قال :« نحن فدا الوطن والثورة! ».

خرجت من الحانوت بسرعة ، ودخلت إلى حانوت جاره . وهمست في أذنه دون انتظار وخرجت دون أن أسمع جوابه . ودخلت . وخرجت ودخلت . وخرجت.

وعادت الأقفال إلى الأبواب الحديدية.

وشعرت أنني كبرت عشر سنوات !!

* * *

انتظرناه عند بوابة المدرسة . وصل إلينا وهو يحمل حقيبة مملوءة وزع البصل علينا . لكل واحد رأس بصل . وهذا لك ياسميحة . رأس بصل بلدي . العجلات حاضرة . سامي سيحرق الطواير . والرصاص؟ البركة في الوادي . حجارته صلبة ملساء . عين ياولد زين!! الأعضاء الحساسة العين ومنطقة الأذن . ومارأيكم بالأنف ؟ لقد أصبت جندياً على أنفه فبدا يدور حول نفسه كالبلبل بسرعة رهيبة . تذكرت عندئذ معلم الجغرافية الفلكية عندما سأل تحسين عن سبب دوران الأرض حول نفسها فأجابه : لأنها بلهاء.

الاحتلال أبله . يدور حول نفسه . سيغمى عليه . سيسقط . وستمطر السماء وتغسل الشوارع ... وتشرق الشمس . ويقطفها ثابت ويضعها في مزهريتي . ونبني داراً فيها مَجلى رخامي . وغرفة وسرير وشباك وستارة وقمر فضي.

وخلع قميصه.

ياللهذا الولد . رائع . لقد تلفع بالعلم ذي الألوان الأربعة .. حله . ارتدى القميص . سار مرفوع الرأس. صعد السلم . العلم يخفق فوق بناية المدرسة.

سلاما خذ!

وتعلقت أفئدتنا به.

وتقدمت سيارة وعليها خمسة جنود.

... عن سميحة عن ثابت عن معلم التاريخ فى مدرسة مخيم الدهيشة الابتدائية أنه قال : وفى عين جالوت كانت نهاية هولاكو..

وكان الحاجز عجلات مشتعلة.

شاهدت مرة أفعى رقطاء فى ساحة دارنا . واختبأت فتش والدى عنها فلم يجدها . فأحرق عجلا مطاطياً . العجلات المشتعلة تطرد الأفاعى.

وقفت سيارة الجنود . ترجل جنديان ليفتحا الطريق ، انهمرت الحجارة.

شتى يادنا وزيدى!

لعلع الرصاص.

اقتحموا الجدار.

رشوا الغاز.

تحسست رأس البصل البلدى فى جيبى .

أغلقوا مدرسة . وفتحو سجنا.

*　　*　　*

حبيبتى . أنا أحبك وأعيش لأجلك . أحرق العجلات المطاطية وأقذف الجنود بالحجارة لتكونى لى. وحدى . أنا لك وأنت لى . أراك فى كل شئ . فى نوار اللوز الأبيض وفى شقائق النعمان الحمراء وفى الشعب المبلل بندى الصباح وفى وجه راعى الحملان الأسمر .. وفى نجمة الصبح.

- ياسميحة أنت الوطن!

- أنا ياولد ؟ أتعرف من أنا؟ أبى يبنى لهم الملاجئ فى كريات أربع على أرض الخليل. هل صحيح ياخليل الرحمن أنك أبونا وأبوهم؟ وأنا أحلم بدار لها سقف باطون وفيها مجلى وحنفية ماء وغرفة وسرير وشباك وبرداية .. وقمر..

ياقمر وجه حبيبى أجمل من وجهك

حبيبى ذكى وأنت غبى

حبيبى شجاع وأنت جبان

حبيبى يقاوم الاحتلال وأنت تنير على الجميع.

حبيبى يرفع العلم ويشعل العجلات ويقذف الجنود بالحجارة ويوزع البصل البلدى ويقاوم الغاز.

وحبيبى ينام هذه الليلة فى المسكوبية.

ياوطنى أنا أحبك . وثابت يحبك . أراك ياحبيبتى قلباً كبيراً رأسه فى المطلة وقاعدته فى النقب وبه اسمان . يتعانقان .. ثابت وسميحة.

حبنا ياحبيبى ثابت.

ثابت يرفع العلم فى ساحة البلدة . وأمى تزغرد . والصبيان والبنات ينشدون.

لك حبى وفؤادى

لك حبى وفؤادى

* * *

الهاء: هدموا

والدال : داراً

والميم : من مخيم

والألف : الدهيشة.

فماذا فعلتم ؟ ماذا فعلت يامنى وياسميرة وياخديجة وياعطاف ؟ وماذا فعلت ياأحمد وياسميح وياحنا وياعلى ؟

أبى وأبوك يبنيان لهم البيوت وهم يهدمون بيوتنا.

نحن نزرع الورد لهم وهم يطلقون الرصاص.

وثابت قوى ولن يعترف.

ونحن نكرههم ونكرهكم نكرهكم.

يلعن أمهاتكم.

لقد صرت أعرف كيف أحول الزجاجة إلى قنبلة حارقة.

الرصاص لايقاوم بالورد.

والدبابة لاتقاوم بالزنبقة.

* * *

جلست على خشبة من جذع زيتونة رومية وشرعت أجلى الصحون والملاعق والفناجين.

غرد عصفور وداعبت الشمس عنقى.

قال لى : سأقطف الشمس وأضعها فى مزهريتك.

جاءت سيارة عسكرية . هجم جندى علىَّ ولف شعرى فى قبضته وسحبنى إلى السيارة.

- مخربة...

فتح .....

زانية ....

وتلقين القنابل المحرقة على السيارات؟

....

....

ولمع نور شديد فى الغرفة وبحركة لاإرادية مسحت أم سميحة عينيها . وشاهدت الشمس كأنها برتقالة صفراء تنزل إلى مزهرة ابنتها وتستقر على بابها.

ملاحظة : معانى الكلمات العبرية:

يروشلايم : القدس	شلانون : لنا	بيت ليخم : بيت لحم.
حيفرون : الخليل	يريحو : اريحا	لعربيم : للعرب.
همدبار : الصحراء		

دراسة

وعى الحكيم ..من الشباب إلى الشيخوخة

د حسنى محمود

١

كان قد مضى قرن أو يزيد قليلا على بعثة رفاعة الطهطاوى إلى باريس، عندما ذهب توفيق الحكيم إلى هناك عام ١٩٢٥ لدراسة القانون. وإذا كان شيخ الأزهر ،فى حينه ،حسن العطار، قد أوصى الطهطاوى بتدوين مشاهداته فى رحلته ،وانطباعاته عن آثار الصدمة الحضارية المدهشة ،وإذا كان الخديوى توفيق نفسه قد أوصى أحمد شوقى ووجهه فى بعثته عام ١٨٨٧م إلى الاهتمام بالآداب الفرنسية والالتفات إليها ،وإذا كان محمد حسين هيكل ،فى مطلع العقد الثانى من القرن الماضى من هذا القرن ، قد أغرق نفسه فى المناخ الثقافى والأدبى فى باريس ،بحيث صرفته آثار الرومانسية إلى إبداع « زينب » -الرواية الفنية الأولى فى الأدب العربى الحديث -فإن توفيق الحكيم ،قد آل فى النهاية إلى الانصراف تماما عن التحضير لدرجة الدكتوراة فى القانون، وتحول إلى الاستغراق فى الحياة الأدبية والفنية،بحيث خلق منه هذا التحول الفنان والأديب ذائع الشهرة والصيت ،فقد غدا بعد هذه الفترة الزمنية، مع تراكمات النهضة الحديثة فى مصر« ربيب الأدب والفن فى مصر وباريس» .وهو كذلك الجامع والمازج بين عصارة كل من الأدب والفن بمعناهما الواسع ..عاش فى باريس حين كانت حركة -الموديرنزم- طاغية على الفن والفكر الغربيين ..ومن هنا كان الحكيم ،ليس فقط مجدداً فى الأب والفن ، بل كذلك – وفى الوقت نفسه مجدداً فى الفكرة والنظرة الاجتماعية والأخلاق(١)

دون أن يواجه « رد الفعل العنيف هذا(لدى طه حسين) لثقافته المدنية ..ولأن الطبقة المتوسطة (التى نشأ فيها ومنها) تكون عادة أحرص على جذورها الاجتماعية من غيرها من الطبقات ،لإحساسها بملكية الأرض والمدن .. بل والتاريخ ..وكاد بذلك» أن يكون هو الأديب العربى المصرى الوحيد الذى استطاع أن يقيم فى نفسه التوازن بين الشرق والغرب »(٢).

ومن خلال لقائه مع سماء الحضارة الغربية الرفيعة فى باريس ،بقراءاته المستفيضة لكثيرين من المفكرين والأدباء الغربيين ،وبانفتاحه على المعارض الفنية ومتاحف الآثار ومراكز الموسيقى الكلاسيكية ،« فقد اكتشف نفسه أولا فى باريس»،(و) كانت الرحلة هى المنعطف المهم فى حياته ووجهته هناك أصابته حمى الفن والأدب والقراءة الموسوعية.ومن خلال باريس -كما يحدثنا- «مملكة الروح وعالم الفكر »(٣) واكتشف عالم الفن والفكر أو الحضارة ،واكتشف مصر كفكرة حضارية ،وتثبت وجدانه عند هذه الفكرة الجمالية(٤) ».

ولما كانت قيم النهضة فى هذه المرحلة « هى فى المقام الأول قيم معنوية وأدبية وفكرية ،وقيم عقلانية تحررية.. وهى قيم مشبعة بالفكر الحديث بضرورة الاتصال بثقافة الغرب ،فقد تحتم انتقال توفيق الحكيم ،تحت تأثير هذا اللقاء من» جو المسائل القومية »(*) إلى المسائل الإنسانية ،وإلى الإنسانية ،وإلى الإنسان فى أفكاره الثابتة فى كل زمان(٥) .ومن هنا طغى اهتمامه بمصير الإنسان الحر، وبمقاومة ما يضيفه من الظلم الزاحف على الإنسانية،خصوصا وقد أحس، وهو يرى بأم عينيه مآسى الحرب العالمية وأهوالها ،بما خلفته ،وبما يمكن أن تخلفه من مظاهر (الدمار الحضارى) للإنسان

---

*لابد أنه يقصد هنا الروح الوطنية لأن فكرة «القومية» لم تكن عرفت ولم يشع مفهومها بين الناس يومذاك.

١- أحمد عبد الرحيم مصطفى .انظر توفيق الحكيم .الجيل والطبقة والرؤيا -غالى شكرى -سلسلة مواجهات نقدية . دار الفارابى -بيروت ١٩٩٣، ١٠٨:.

٢ صلاح عبد الصبور .انظر المرجع السابق :١٠٨ -١٠٩ ، دون أن يذكر مصدره فى العالين.

٣- توفيق الحكيم -تحت المصباح الأخضر -مكتبة الآداب ومطبعتها -القاهرة-١٩٨١ (الطبعة الأولى ١٩٤٢) ٤٦-٤٨:.

٤--ناجى نجيب -توفيق الحكيم وأسطورة الحضارة -دار الهلال ،القاهرة -١٩٨٧ :٥٢.

٥- م. ن ٦ .عن توفيق الحكيم-مسرح المجتمع- المقدمة٣/٤.

،مما عمق إيمانه بالتقدم الإنسانى وأثار قلقه على مصير الحضارة إثر طغيان القوى الأرضية فى بعض رجال الروح والفكر.

ويفسر توفيق الحكيم نفسه جنوحه إلى هذا التسامى ،وميله إلى قضايا الفكر، فيذكر (تلك النزعة العقلية التى ورثها عن والده) (٦) .وربما كان الأصح أن نرجع هذا الجنوح أو أصول هذا الجنوح إلى بنية النشأة الأولى عامة .(فإلى جانب الأب نجد الأم بتسلطها وتعاليهاونفورها من البيئة المصرية) (٧).ويزيد معاصره إبراهيم ناجى توضيح ذلك بقوله « لم يفلح أبواه–أمه التركية وأبوه المصرى الفلاح–فى جذبه إلى الخارج ولا إلى طريق من الطرق، وأخذ هو بنفسه ينكمش حتى خلق لنفسه دائرة خاصة به هى الدائرة التى تتجلى فيها له كطفل إرادةالقوة، وتلك الدائرة هى دائرة خيالاته وأحلامه وصوره التى يبتكرها ابتكاراً .تلك دنياه الخاصة التى تعوضه عما فقده من عدم اتصاله بالمجتمع ..ومن هذا يتضح معنى الغيبوبة ،معنى الذهول الذى يستغرق توفيق الحكيم–سيطرة عالم الخيال والهواجس الباطنة على الرجل فيه كما كان مسيطراً عليه طفلاً(٨).

ويحلو للحكيم أن يسمى نفسه(راهب الفكر) الذى تزوج الفن زواجاً كاثوليكيا(٩) ،وأنه (مفكر) مختلف فى شئ أساسى هو الشمولية .« هذا هو اللقب الذى أحب أن يطلقوه على أو ينادونى به(١٠)» .فهو كما يقول ليس مفكراً محترفا ،بمعنى أن كتبى لا تعالج كلها مواضيع فكرية بحتة، كلا .إنى مفكر بمعنى آخر ،أى بكل بساطة ،إنى رجل يفكر مثل اى رجل يأكل أو يجرى، والفكر عندى ممارسة يومية ،فلابد أن أمحص كل ما يجرى أمامى أو يدور حولى وأناقشه وأحلله »(١١).

ويتفق إسماعيل أدهم مع إبراهيم ناجى على توكيد اعتراف الحكيم بهذه النزعة لديه، يقول إسماعيل أدهم (عام١٩٢٨) من الأهمية بمكان أن ينظر إلى تصرفات الفتى فى تلك الفترة (فترة ثورة ١٩١٩)،فإننا نجده فى سلوكه نازعا منزع تخيل وتجريد

٦، ٧–توفيق الحكيم –سجن العمر –مكتبة الآداب ومطبعتها –١٩٨٨: ١٠١، ٢٠، ٥٠.

٨– غالى شكرى –المرجع السابق :١٠٤.

٩– غالى شكرى –ثورة المعتزل –دراسة فى أدب وتوفيق الحكيم– مكتبة الأنجلو المصرية ،١٩٦٦: ٨١.

١٠ غالى شكرى –توفيق الحكيم ..الجيل والطبقة والرؤيا :٧٧.

١١–م. ن: ٧٧ ، ٧٨.

رافقه إليها طبيعته الحسية التى أخذت بأسباب التخيل نتيجة انسحابه لحدود نفسه .وهذا المنزع جعله يأخذ العالم مأخذا تجريدياً ،ويرجع بالظاهر المحسوس إلى الخفى وراء المحسوس » (١٢). ويقول غالى شكرى « حقيقة موضوعية فى تفكير الحكيم وفنه ،هى أن تجربته مع الحياة هى تجربة الذهن.. ولعل التجربة الذهنية وحدها هى منشأ ميله إلى الفن المركز ..ومنشأ ميله إلى التفكير الرياضى سواء فى الفلسفة أو المعمار أو الموسيقا .ولعل تجربة الذهن أخيراً هى منشأ إلى(التعميم) فى الحكم على طبائع الاشياء أو حركة تفاصيلها ..فالبرج العاجى حقيقة أساسية فى حياة الحكيم، لأنها بمثابة المظهر الخارجى لتجربة الذهن .أما رهبنة الفكر فهى العمود الفقرى لتجربة الذهن التى يعايشها الفنان بالتجرد الكامل من كافة المغريات الطارئة ،والنزوات العابرة ،والملاذ السهلة المباشرة(١٣) ».

ومن أبرز المظاهر الفنية لاستكمال هذا الجنوح لديه إلى التوحد والانعزال ،والميل إلى الاستغراق فى التفكير العقلى ما يبدو عليه الحكيم من ميل فطرى إلى كتابة الدراما والمسرح،يقول إنه كان كاتبا متخصصاً لفضل كتابة المسرحية على سواها من الفنون الادبية .لماذا؟ « لأن المسرحية حوار بين شخصين أو أكثر، وأنا دوماً لا أحبذ الرأى الواحد .كما أننى أتعب عندما تجعلنى أتكلم لوحدى(كذا) .ففى المسرحية أشخاص آخرون يتكلمون معى.. وهكذا فإن توزيع (الفكرة) يتفق مع طبعى، كما أن (الحوار) يلتقى مع تفكيرى. فى الحياة(١٤) .فهو فى تمحيصه آراءه وأفكاره يرغب فى أن يعرضها على آخر وأن يمتحنها مع آخرين يريد أن ينفرد بهم، وأن شاركوه عزلته فى التفكير والتخيل ومع العقل .ومعروف أن الحكيم من أكثر الأدباء، إن لم يكن أكثرهم إجادة فى استخدام وسائل الفن المختلفة لعرض أفكاره وخدمة موضوعاته السياسية وغير السياسية، فقد ظل على اعتقاده بأن الفن هو أقدر وسائله التعبيرية على مواكبة ركب الحياة، بكل تقلباتها ،فى خط سيره إلى الأمام . وبوسع المرء أن يقول « إن الفن كان دائما العنصر الجوهرى فى حياة الحكيم بأسرها ،فلا يعرف أحد فى حياة هذا الكاتب عاطفة جامحة ،أو عملاً سياسيا خارج نطاق الفن ..فهو يستطلع خلال عدسة

---

١٢ -أنظر المرجع السابق :١٠٣.

١٣ ثورة المعتزل :٨٢-٨٣.

١٤-انظر غالى شكرى -توفيق الحكيم ..الجيل والطبقة والرؤيا :٧٦.

الفن وحدها كل جواهر الدنيا التى كان يراها فى الواقع بكل أدوانها الاجتماعية وديمقراطيتها الزائفة.. إنه يعيش الأحداث خلال فنه ،فأسهم فى الجهاد السياسى والاجتماعى ،متكلماً بألسنة شخصيات تصيح من وراء قناع الفن المجسم،كما كان يحدث أيام الإغريق ،وهى طريقة تضخم صوت الإنسان -كما هو معروف- كى يصل إلى أسماع الحشد الذى لا حصر له (١٥).

وقبل أن نتناول هذا الجانب من رؤية الحكيم وفكره السياسى يحسن بنا أن نتبين مكانة الفكر ،وعلاقة رجاله برجال السياسية لديه ،وكيف انعكس ذلك كله على مفهومه لفكرة التزام الأديب ورسالة الأدب فى الحياة.

يمثل الحكيم من هذه الناحية النموذج المثال على رجل الفكر والأدب ،وفهمه غاية الأدب ورسالة الأديب فى الحياة.. وقد انعكس مفهومه هذا على حياة الأديب لديه إلى حد أصبح يشكل فلسفة حياتية ،تحكم تفكيره ،وتوجه مواقفه وتصرفاته ،فهو يعلن «إنى لا أُقدس شيئا ، ولا أحترم أحدا ،ولا أنظر بعين الجد إلا إلى أمر واحد: الفكر . هذا النور اللامع فى قمة هرم ذى أركان أربعة: الجمال والخير والحق والحرية .هذا الهرم هو وحدة الشئ الثابت فى وجودى»(١٦) ويكبر لديه الشعور بكونه أديبا مفكراً تتصل مهمته بهذه القيم المعنوية العليا للحياة البشرية التى لا يؤتمن عليها فى المجتمعات الراقية غير رجال الفكر الأحرار .ومن هنا ،فهو يرى عمل القلم ومكانته أعلى من كل جاه ،وأن لاجاه سواه .« لا أحب أن أكون من ذوى الجاه .. كل ما عندى قلم لا أرضى أن أسخره فى هدم الأشخاص لمجرد الهدم، ولا أن استخدمه فى بناء أشخاص طمعاً فى الغنم ..إنما هو خادم بالمجان لأى فكرة كبيرة أدافع عنها .. تلك هى مهمتى وكل مطلبى ،والباقى لا وزن له عندى(١٧).

وفى سبيل السمو بمهمة القلم واستقلال الأديب يرى الحكيم أنه يجب أن يكون حراً لأن الأديب إذا باع رأيه ، أو قيد وجدانه ،ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب ،فالحرية هى

١٥- أ. بابا دوبولو-مقالة :توفيق الحكيم وعمله الأدبى -انظر ملحق السلطان الحائر :٢٣٧-٢٣٨ ,٢١٦-٦

١٦- حمار الحكيم، مكتبة الآداب ومطبعتها -. ١٩٤ :١١٦.

١٧-حمارى ومؤتمر الصلح -الهيئة المصرية العامة للكتاب- مكتبة توفيق الحكيم الشعبية -د. ت :٦١ -٦٢.

تبع الفن ..وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن» (١٨) .ولذلك فهو يصر على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها واستقلالها تجاه سلطة السياسة والعمل. وقد طبق هذا المبدأ على شخصه تطبيقاً صارماً ، يقول ..«فابتعدت عن محيط السياسة العملية، ورفضت الانضمام إلى الأحزاب السياسية ،واعتبرت المفكر كالراهب ،مسرحه هو حريته ..حتى لا يستخدم آلة مسخرة في أيدى رجالها ،فيفقد بذلك حرية النظر إلى الأشياء.. إن المفكر الذى يترك مكانه لينضوى تحت لواء سلطة العمل الممثلة فى حزب أو حكم هو مفكر هارب من رسالته ..وإن هذا الهروب إلى معسكر الساسة والحاكمين هو الذى جرد الفكر من سلطانة وجعل منه تابعاً لا متبوعاً ولم يخطر فى بالى قط أن أعزل الفكر عن أى نشاط سياسى أو اجتماعى ..فالعزلة التى دعوت إليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة ،وعن الأحزاب لا عن المجتمع»(١٩) ومن أجل ضمان هذه الحرية التى تغيا بها تمكين النوع البشرى من الاستمرار والرقى ،فهو يتخذها عقيدة أساسية يؤمن بها، يقول «..إنى أعلن هذه العقيدة ولى الشرف العظيم أن أموت يوما من أجلها ،وأن أغرق معها إذا غرقت ،فلا خير فى صاحب فكرة أو عقيدة لا يموت بموتها»(٢٠) .وهكذا يطلق الحكيم هذه الصيحة قلقاً على مصير الفكر المطلق الذى يرى أن لا كرامة للفرد والإنسان إلا فى ظل الديمقراطية والحرية، وأنه إذا ذهبت الحرية، فأجدر بالحر أن يموت .وإنطلاقا من هذا المفهوم، «فما من حدث استوجب تحرك القلم إلا حرك قلمى ..وما من أمر هز البشرية إلا هز نفسى ، بل ما من قضية من قضايا الحياة الكبرى التى تمس الإنسان وتطوره وتقدمه إلا شغلتنى ودفعتنى إلى الجهر بالرأى حتى فى النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. دون التفات إلى عواقب الرأى الحر، والنقد الحر(٢١) .حتى الديمقراطية ،بمعناها السياسى ،أى باعتبارها نظاماً سياسياً أو حزبيا ، لا يقبل الانتماء إليها ،لأن الحرية الفكرية والروحية ، التى هى مسرح الفكر الحر الحقيقى ،تمنع من الانخراط فى سلك حزب أو نظام قد يضطر إلى الدفاع عنه بالحق أو

---

١٨ التعادلية مع الرسلام والتعادلية -مكتبة الآداب ومطبعتها -طبعة ١٩٨٣ :١١٨ .ينقله هو نفسه عن كتابه «فن الأدب»

١٩-م. ن ١٣٢-١٣٣.

٢٠ سلطان الظلام -مكتبة الأدب ومطبعتها ،١٩٤١ :٣٩-٤٠.

٢١- من البرج العاجى -مكتبة الآداب ومطبعتها -القاهرة- ١٩٨١ ،الطبعة الأولى سنة ١٩٤١ :٢٦.

بالباطل ..فهو لا يستطيع الدفاع مطلقا عما يعتقد أنه الباطل، كما لا يستطيع أن يخدم شيئا غير ما يعتقد أنه الحق . ويذهب في هذا المنحى حداً يرى فيه أن الكاتب الحر « يستطيع أن ينشئ للإنسانية نظماً وعوالم مثالية، وأن يرسل في الأجيال أفكاراً ومبادئ تصلح أساسا لمذاهب عملية في السياسة والاجتماع، ولكنه لن يكون مسئولا عن كيفية استخدام أفكاره ، ولا عن الأشخاص الذين وضعوها موضع التنفيذ » (٢٢) ،حيث يجب أن يبتعد عن رجال الحكم والسلطان ،خوفا من الخضوع لهم وخشية من إذلالهم .وأن يصبح آلة مسخرة في أيديهم .وعندها يكون الفكر قد غير صفته ،وسيضطر المفكر صاغراً ،إلى التماس العون لدى العمل .والفكر المستقل يؤثر إلى مدى بعيد في العمل .أبعد بكثير من أثر الفكر المندمج فيه أو الخاضع له.

ولا يرى الحكيم في رجال الفكر قوة رجال الدين بنفوذهم الروحي .ثم إن أبرز دواعي ضعف رجال الفكر تتمثل في تفككهم ،ولذلك ،فهو يقترح عليهم التكاتف والتآزر ، لتكون لهم قوة تعادل قوة الحكام الذين يخشون دائما ما يمكن أن يوجهه إليهم رجال الفكر من نقد وتوجيه،فليجأون ،في أحيان كثيرة ،إلى إسكاتهم بالاستدراج إلى حظيرة السياسة العملية ،فيلغى بذلك وجودهم ،لأنك إذا أدمجت الفكر في العمل لم يعد فكراً .فواجب رجل الفكر أن يحافظ على كيان الفكر، وأن يصون وجوده الذاتي حراً مستقلاً(٢٣).

وهذه السياسة التي فرضها الحكيم على نفسه بكل حزم وإصرار ،إلى حد الغلو والإغراق ،جعلته يعاني في حياته معاناة شديدة ، دون أن يلقى أي سند من حزب أو حماية من أحد..يقول « فاتتني في دنياي حتى اليوم لذة لم أذقها قط.. تلك هي لذة من ينقد ويرمى وظهره مسند إلى حائط حزب.. كما فعل (العقاد) وهو نائب في البرلمان الوفدي ،وصاح نحن مستعدون لتحطيم أكبر رأس في البلد يعتدي على الدستور :كنت ذلك الذي يصيب فلا يبسم له أحد، ويصاب فلا يأسف له أحد! نقدت عيوب « النظام البرلماني » عام١٩٣٨ ،وكنت يومئذ موظفاً في الحكومة ..فعاقبوني عقاب اللص المختلس ..إن من حقي الكلام في هذه الشئون ،إن لم يكن بصفتي كاتباً ،فباعتباري مواطناً(٢٤)

٢٢- انظر ، شجرة الحكم السياسي في مصر ١٩١٩-١٩٧٩: ٢٢٦-٢٢٨.

٢٣- انظر التعادلية .. ٨٩ -٩٢.

٢٤-شجرة الحكيم السياسي :٢٥-٢٦ ،من مقدمة « شجرة الحكم » ، طبعة ١٩٤٥.

وبرغم ذلك، فهو يرى أن أروع الكفاح هو كفاح النفس في سبيل احتمالها الضربات في صبر وابتسام «لقد أصابني ما يدمي من سهام الأقلام.. ولكنني كنت أقول في نفسي-إني إذن حي ،فالكاتب الحي هو الذي ينهش كاللحم الحي،لأن الجيف لا تطعن ولا تنهش.وما دمت حياً ،فلا شئ في الأرض يمنعني من الركض على جواد الكفاح!(٢٥).

وإذا بدا الحكيم بهذا الفكر السياسي منظراً مثاليا ،وأديباً ملتزما غاية الالتزام ،فهل يصلح مثل هذا السمو في تنظير الفكر السياسي نموذجاً في التعامل في مثل أوضاعنا السياسية في عقد الأربعينيات ،أو حتى في أيامنا هذه؟. لعل الحكيم أن يكون على قدر من الصواب في موقفه وفي رؤيته ،ولعله كان يمكن أن يكون ذا تأثير أقوى وأكثر فاعلية لو أنه استند في مواقفه ونضاله ،إلى جهة يطمئن إليها ويتعاون معها!!.

٣

دخل توفيق الحكيم إلى ميدان الفكر والتنظير السياسي من أوسع الأبواب وأكثرها أهمية وقبولا : باب الوطنية وما يتصل بها من «الفكرة المصرية» ،وباب الإيمان بالديمقراطية الليبرالية الحقة، وباب الإخلاص إلى حد الإيمان بالمثل والقيم الإنسانية الرفيعة.وقد دخل من كل هذه الأبواب ، بروح الأديب الملتزم ، عبر أبهاء الأدب،حيث توسل إلى عرض هذه الرؤى والأفكار من خلال بعض ضروب الأدب والفن ،حيث تتجلى مواهبه العالية المميزة .ومن هنا تنوعت موضوعات اهتمامه في هذا المجال ، فمن

٢٥- من البرج العاجي :٩٩.

الديمقراطية الليبرالية والحرية، إلى مشكلة السلطة والحكم ،وحرية الفرد والمجتمع، والعلاقة مع السلطة والحاكم، والعلاقة بين رجل الفكر ورجل السياسة ،والحزبية والفساد السياسي والاجتماعي ،ومستقبل الإنسان وحاضره، ومثل الحياة الإنسانية وقيمها الرفيعة ،والتناقض بين السلام والاستسلام، وبين الغاية والوسيلة، ورسالة الأديب وقضية الالتزام في الأدب ،إلى آخر مثل هذه الموضوعات ومتعلقاتها الإنسانية.

ويبدو أن توفيق الحكيم بفطرته ، يتحلى بمثل هذه النوازع النفسية والإنسانية .وقد تبلورت هذه النوازع لديه في ظروف حياته الأسرية ،وبتأثيرات حياة الفلاحين التي عاشها واستغرق كثيرا من مظاهرها في الريف المصري أثناء عمله نائبا عاما في هذه الأرياف .وقد عمقها ونماها لديه ما ظل يحسه من تناقض حاد ومفجع بين حياة التخلف في وطنه، وبين حياة الحرية والديمقراطية التي خبرها في أثناء إقامته في باريس ،من نحو،وما تشبع به عقليا ونفسيا من خلال قراءاته ومطالعاته في الآداب ومظاهر الحضارة عند الغربيين ،من نحو آخر .وقد لقيت كل هذه المؤثرات وسواها نفسا حساسة وتربة صالحة لتربية هذه المشاعر والعواطف الإنسانية ،أعان على ظهورها والتعبير عنها مواهبه الأدبية والفنية الأصيلة التي راح بها يجسد هذه النوازع والمفاهيم والدعوات بكل صدق ومثابرة وإخلاص، خصوصا وهو يرى وطنه مهدداً بالخراب والتدمير على أيدي الاستعمار المحتل من ناحية ،وعلى أيدي قوى الإقطاع والتخلف ،بما يعتورها من فساد وأنانيات وصراع ،من ناحية أخرى.

في أواخر العقد الثاني من القرن الماضي كان توفيق الحكيم يستدير عن شرفته ليخطو على عتبة العقد الثالث من عمره ،فتى يتفتح للحياة إبان اشتعال الشارع المصري بالثورة على المحتلين ،وقد قدر لـ(محسن -اسمه الأدبي في عودة الروح) أن تكتوي أصابعه بنار هذه الثورة الوطنية ،وأن يترسخ في عقله وفي أعماق نفسه شعار الثورة« مصر للمصريين » ،فكرة الوطنية التي آمن بها يومئذ زعماء مصر وكبار رجالاتها من المفكرين والزعماء الوطنيين وانسجاما مع طبيعة الفتى/ الأديب ، راهب الفكر/ المعتزل ، على وعد التجربة الذهنية الفاعلة ،كما تجسد حياته بعدئذ، راح يبلور هذه الفكرة ويعمقها في نفسه ،ويكسوها لحمها الحي ، فيتمثلها عجينة حضارة إنسانية أصيلة تشع فيها ومنها الحياة باستمرار ، ولا يمكن لها أن تموت ،وقد تغلغلت روح الأدب والفن لديه ،وملأت نفسه حقيقتها الإنسانية مجسدة في روح أسطورتها أزوريس تنادي الحارس، ابن مصر النموذج- حوريس : انهض ،انهض أيها الوطن! إن لك قلبك

.قلبك الحقيقى دائما.. قلبك الماضى ،وهو يرد عليها من الأعماق : إنى حى! .. إنى حى..!.

فهم الحكيم فكرة تفاعل الحضارات وتمثلها وتواصلها ،وعلى هذا الأساس فهم الفكرة المصرية من خلال روح مصر التى انبثقت من تمازج التاريخ والتمثل الحضارى الذى تجسد بتعاقب الحضارات الفرعونية والقبطية والإسلامية ،ومن هذا المنطلق العقلى / الوجدانى ظل محكوماً بشعار واحد أسماه« مصلحة مصر » ، وظل ،على أساسه ، يضع معيار حكمه على نجاح الحاكم أو المواطن ووطنيتهما ،من خلال قوله «إن الحاكم الناجح الذى آراد لمصر الخير والنجاح ، وبدأ مهمته بسؤال : ماذا أريد لمصر ؟ أما الذين لم يهدفوا إلى خيرها ،فقد كان سؤالهم هو: ماذا يريدون من مصر ؟ وفرق كبير بين الذى يريد لمصر وبين الذى يريد من مصر ، سواء كان على مستوى الحاكم أم حتى المواطن(٢٦).

وسواء عددنا مثل هذا الرأى مجرد موقف وطنى أم موقف سياسي ،فإنه قياسا على رآى الكاتب السويسرى (كيلير) ، يؤول فى النهاية إلى سياسة(*). وانطلاقا من هذا الفكر السياسى المفعم بالوعى والصدق فى حب مصر ، فإننا نرى الحكيم ،وقد نضجت شخصيته ،واستحصدت مواهبه الأدبية وثقافته وخبراته الحياتية ،يستغرق منذ قبيل الحرب العالمية الثانية، ومنذ ١٩٢٧/١٩٣٨ بالتحديد ،فى الكتابة السياسية والاجتماعية .فيشغل نفسه بمعالجة كثير من هذه المظاهر والقضايا فى حياة مصر. وعلى مدى عقد كامل حتى عام ١٩٤٨ ،حيث تعد هذه الفترة من أكثر الفترات حرجاً فى تاريخ مصر الحديث ،ينشر كثيراً من المقالات والكتابات والمساجلات يتناول فيها« هيستريا السياسة » فى مصر ،فيجسد إفسادها الهدوء والتفكير ويصور ارتفاع صداها إلى آبراج الأدباء والمفكرين العاجية ،ويرى أنه« إذا وصل بخار السياسة إلى تلك القمم البارزة فى آمة من الأمم ،فأنذر إذن بالويل ،وتنبأ بأن رأس الأمة لقد لعب به الداء! فما رأس الأمة فى حقيقة الأمر إلا مفكروها المجردون !(٢٧)» ثم يهاجم النظام الديمقراطى المزيف ،كما رآه ،فى مصر تحت عنوان « جموح الديمقراطية » ،وينتقد بحدة وعنف

(*) يتحدث صلاح فضل عن نماذج الموضوع الاجتماعى والموضوع السياسى فى الحياة الواقعية، وتفاعلهما تفاعلا عضويا ،فيقول إنه إذا كانت « الصبغة التاريخية تعتبر من معالم الواقعية المميزة، فإنه يتصل بالطابع التاريخى للواقعية صبغتها السياسية الأصلية بالمفهوم الذى كان يلمح إليه الكاتب السويسرى (كيلير) عندما قال -كل شئ سياسية ،

٢٦- أنظر صلاح منتصر- توفيق الحكيم فى شهادته الأخيرة- مركز الأهرام للدراسات والنشر (١٤١٧هـ، ١٩٩٦) :٤٤.

سياسات الأحزاب والشخصيات السياسية وسلطات الحكم فى اشتغالهم جميعا وتلهيهم بالقول دون العمل ،وبفساد دولاب الادارة وعملها دون برامج وتخطيط وينتقد صراع الأحقاد بين الافراد والأحزاب ،ويبدى فى هذا المجال كثيراً من الآراء الوطنية السديدة .فالديمقراطية في رأيه « ليست كلمة تقال فى الخطب، لأنها جميلة ذات رنين .ولاهى بناء شامخ يسمونه (البرلمان) ،لكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع !.. كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف ،إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية »(٢٨).

وقد شكلت مشكلة الحكم لدى الحكيم أهم المحاور التى دارت حولها كتاباته وأدبه بشكل عام،ومسرحه بشكل خاص. ومثل فيها مثال المفكر الليبرالى الذى يتصور ملكوت الحرية فى النظام الديمقراطى الغربى .ومن هنا صب نقمته على الانتخابات كما كانت تجرى فى مصر .فكتب عن« نعيم الانتخابات » ،إذ لم ير فيها أى مظهر من مظاهر الديمقراطية ،فهى تجرى بروح ما يدعوه (شركة مقاولات الانتخابات) ،ويسمى مناصب رجال السلطة والحكم(خيول المناصب الحكومية الخشبية) ،ويرى أن الأحزاب تقام وتنشأ بصبغات شخصية متشابهة من أجل مصالح طبقة الملاك والاقطاعيين .وقد جمع هذه المقالات مع مقالات أخرى كثيرة فى موضوعات متنوعة فى الدين ،وفى الأدب والفن والثقافة ،وفى المرأة والمجتمع فى كتاب «تحت شمس الفكر » (٢٩) ونشره عام ١٩٣٨.

وهو يعيب نظام الانتخابات كما كان معمولا به فى مصر يومئذ ،وينقل على لسان (هتلر) فى إحدى خطبه قوله: « قد يكون من الأيسر أن نأمل فى رؤية جمل يمر من ثقب إبره ،على أن نأمل فى رؤية رجل عظيم يكتشف عن طريق انتخاب الجماهير ! » ويعلق على لسان (صاحب المعالى) :« هذا ..قول يجوز فى ألمانيا وأوروبا ،أما فى مصر، فمن قال إن الشعب أو الجماهير تنتخب أحداً؟ »(٣٠) .وتبلغ سخريته حداً محرجاً غاية الحرج، وهو يتحدث عما يسميه « زفة الانتخابات » ،إذ يقول ..« فمنافسك الخطير يمكن رقناعه بالمال لينزل لك عن الدائرة،لأن مبدأ« خلو الرجل» المعمول به اليوم فى أزمة المساكن معمول به أيضا فى سوق المقاعد (مضاربة الخصم) ..وهكذا الديمقراطية كما نراها فى مصر(٣١).

٢٧-تحت شمس الفكر مكتبة الآداب ومطبعتها -القاهرة- د.ت (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨) ،١٤٤ ،من مساجلاته مع منصور فهمى عام ١٩٣٧.

٢٨- شجرة الحكم السياسى :١٢٦، ١٢٥.

٢٩- انظر صفحات :١٥٩، ١٦١ ،ومقالة «الأحزاب والشعب» ١٦٩.

٣٠-شجرة الحكم السياسى :٤٤-٤٥، ٤٦.

٣١- م.ن ٢٠٢-٢٠٤ ،مؤرخة فى١٢ يناير ١٩٤٥.

ويصور الحكومة فى مصر يومئذ تقوم على النظام البرلمانى المزيف ،إذ ترتكز على قوتين البرلمان ،للأستواء على الكراسى ،(والطلبة) للاستقرار الهادئ فى الكراسى! وكليهما لا يكتسب إلا بوعود (ومنح) إن أعطيت فعلاً ،فقد حلت الفوضى وفسدت الأخلاق ، وإن لم تعط ،فلا حكم ولا اطمئنان على حكم(٣٢).

وفى نقده بعض أدواء المجتمع المؤثرة فى الحياة السياسية، يذكر تفشى المادية والوصولية فى جسم الأمة، والغلو والإغراق فى التنابذ والتحاسد والخصومات إلى حد تحطيم الطرف الآخر على حساب الأمة والوطن .وفى رأيه أن الاقتصاد فى العصر الحديث هو(دين العصر) الرابض وراء الجميع ،وهو العدو الأكبر .وعلى هذا الأساس يرى أن السياسة فى حقيقتها ليست للحكم أو للسياسة فى ذاتها ،وإنما السياسة للاقتصاد(٣٣) .ولذا ،فإن الاشتراكية « هى جوهر لابد أن يدخل فى تركيب كل نظام سياسى حديث ..وما أيسر على الديمقراطيات إنشاء (الديمقراطية الاشتراكية(٣٤).

ويشير فى بعض كتاباته إلى إصلاح أوضاع الحكم على أساس تربوى متكامل يعتمد فيه على دور البيت والمدرسة فى الإعداد والاستعداد ،ووجوب تلقين الشباب المثل العليا والمبادئ الخلقية السليمة ،ويرى أنه على الشباب تقع مسئولية وإحداث الثورة المباركة التى تقيم الوطن على أقدام من الصحة والقوة والنظام. ويهدف من وراء ذلك كله إلى أن يصبح الحكم للشعب لمصلحة نفسه ،لا أن تتحكم طائفة أو طبقة منه لمصلحتها أو لمصلحة جماعة.. ويقول على لسان الفيلسوف مخاطباً الشعب » ..أحكم أنت !..أنت كلك فى جسم واحد وروح واحد.. الواحد للكل.. والكل للواحد ..احكم نفسك بنفسك أيها الشعب! لمصلحة نفسك(٣٥).

وهذا الإصلاح التربوى، يشبه فى حال نجاحه ،أن يكون تنظيفاً وغسلا لعقل الأمة ،يستدعى تغييرات كثيرة فى أنظمة الإعلام والتعليم ،أشبه ما يكون بالثورة الثقافية(٣٦) .وهو يقدر أن العقل المصرى كان يستطيع ،فى ظل تقاليد ديمقراطية ،أن

٣٢-م. ن :٩٢.

٣٣ -انظر م.ن ٤٩١ – من كتابه «تأملات فى السياسة».

٣٤-م.ن. ٤٩١ -من كتابه تأملات فى السياسة».

٣٥-م.ن :٢٣١-٢٣٢ مارس ١٩٤١ .وهل أدرك بعد إلى أى حد أسئ تطبيق الاشتراكية فى كثير من دول العالم؟.

٣٦- براكسا أو مشكلة الحكم -١٩٣٩ :١٦٥.

يعطى أكثر بكثير مما أعطى.وفى رسالة له إلى أحمد الصاوى محمد عام١٩٣٧ يرى أنه نتج عن فوضى حياة المصريين وأوليتها وسديميتها أنه« لم تتكون فيها عوالم منظمة متالقة يعيش فيها الناس ..(فلا يوجد فى مصر) «عالم الأدب» و«عالم الرياضة» «وعالم الفن» و«عالم السياسية»..إلخ بالمعنى المفهوم لهذه العوالم فى أوروبا(٣٧)

وربما كانت هذه الدعوة سليمة فى ذاتها وفى ظروف مناسبة ،ولكن وعى الحكيم يقصر به عن إدراك الهدف عندما يدعو الناس ، كلاً فى مجال اهتمامه إلى الاهتمام بهذه العوالم ،وترك السياسة للسياسيين ،لأنه يغفل هنا ،حقيقة السياسة وفساد السياسيين ،وما لابد أن يترتب على ذلك من خراب الوطن ودماره ،إذا لم يبد الشعب الاهتمام الكافى بالسياسة إلى جانب اهتماماته الأخرى فى شئون الحياة المختلفة.

وقد يكون صحيحاً قول غالى شكرى إن «توفيق الحكيم حاول ترميم البناء الفكرى للبرجوازية من فضلات ثوريتها القديمة، حين كانت الدعوة المصرية تجسيداً أميناً لإحدى مراحل الثورة فى تاريخنا الحديث،ولهذا السبب جاء كتابه(التعادلية) أقرب ما يكون إلى النداء الأخير للروح الثورية القديمة للطبقة المتوسطة ،حتى تستطيع أن تواكب الركب الصاعد إلى الاشتراكية ..والحكيم ،هو أحد أبناء الثورة الوطنية ،ولكنه أيضا لم ينتكس مع انتكاسة رواد جيل الثورة. وأصبح كما يقول لويس عوض رمزاً للجسر القائم بين ثورتين أو ازدهارين عظيمين ..وهو لكى يكون جسرا عظيما ، لابد من أن يتفادى أسباب النكسة التى أطاحت بالعمالقة عن صدارة الركب الثورى المتقدم .ومن هنا تتسم محاولاته الفكرية أول ما تتسم بالاجتهاد الشديد والعرق الغزير الذى يتصبب بارداً على جبين راهب الفكر(٣٨).

****

«قبيل الحرب العالمية الثانية.. وقبيل اجتياح (هتلر) بجيوشه أراضى(روسيا) ..نشرت عام١٩٣٨ فى كتابى «عصفور من الشرق» الآتى: «إنى.. لأتنبأ لك منذ الآن، بوقوع نوع من الحروب الصليبية بين(الماركسية) وبين(الفاشستية) ..(النازية).(٣٩).

٣٧-انظر غالى شكرى -توفيق الحكيم ،الجيل والطبقة والرؤيا :١٠٦-١٠٧.

٣٨-تحت شمس الفكر :١٣٠.

٣٩- ثورة المعتزل :١١٢، ١٢٤. - شجرة الحكم السياسى :٢٠٥.

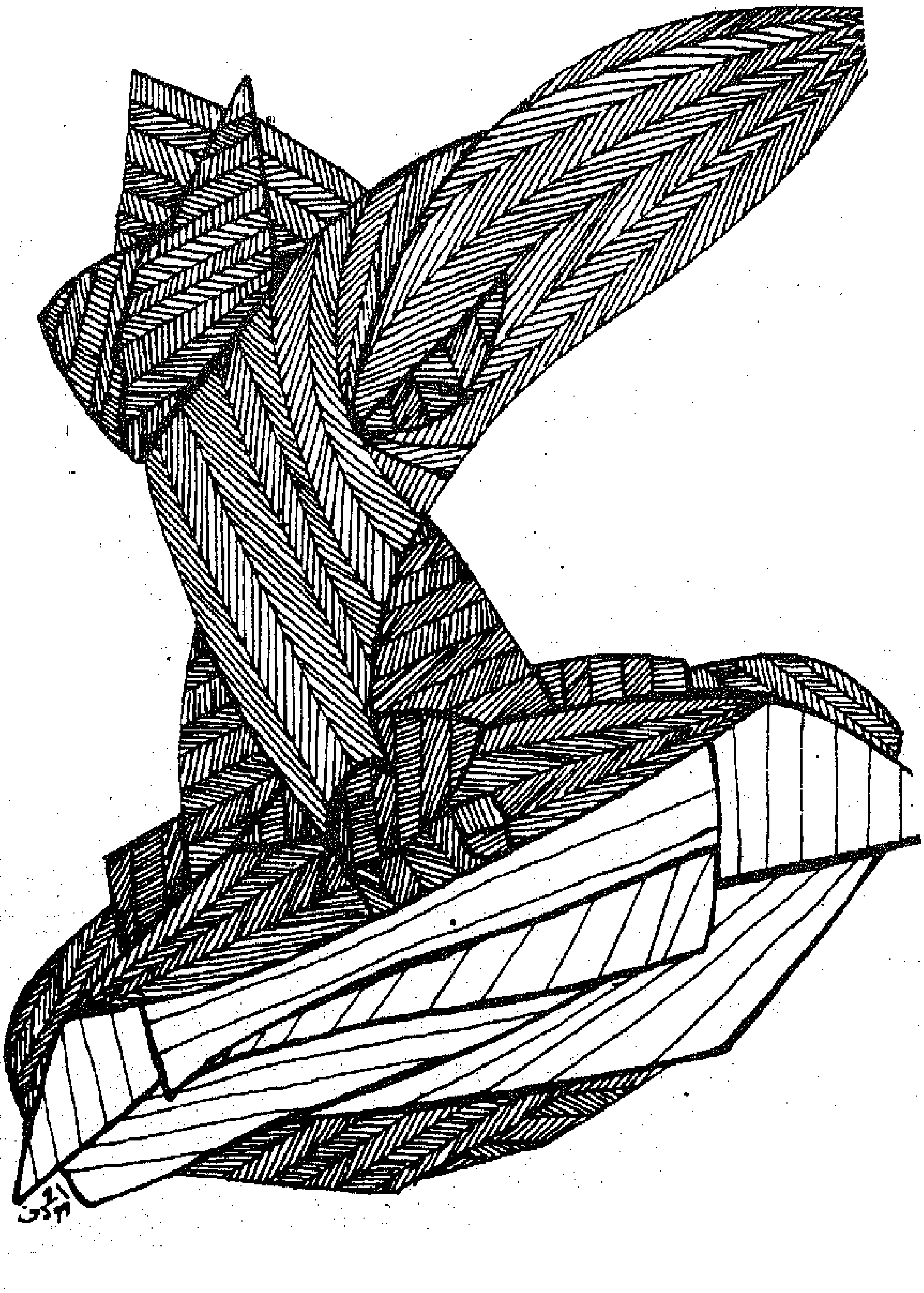

كان الحكيم، من خلال إيمانه بالقيم الإنسانية ومثل الحياة البشرية ،(الحرية ، الفكر ، العدالة ،والحق والجمال) ،كما تتبدى في أفكار هداة البشرية وفي أحلامهم الإنسانية ، يشغل تفكيره في مقاربة بعض القضايا السياسية الكبرى بكل ما ينعكس عنها من مؤثرات على حياة الإنسان،الفرد والجماعة .وهذه القيم العليا لا يؤتمن عليها في المجتمعات الراقية غير رجال الفكر الأحرار وحدهم .ومن مظاهر ذلك حديثه عن صدمته العنيفة بما ترتب على مآسي الحرب العالمية الثانية وأهوالها من آثار الخراب والدمار التي تمنع استمرار الرقي البشري ،وتحد من إمكانات تحسين الحياة.تلك هي أعنف صدمة هزت نفسي في السنوات القلائل التي تلت الحرب الكبرى الأخرى ..لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخاربها(*) قد ردعت البشر.. لكن.. وأسفاه .. فوجئت بما هالني :لقد ارتدت البشرية بغتة إلى الوراء .. صيحات الغابة والعودة إلى غرائز الدم والجنس ،سأزدري دائما القوة الوحشية في ذاتها ..وسأعود إلى القوة الفكرية والمعنوية ..لتمكين النوع البشري من الاستمرار والرقي(٤٠) وتهوله خدعة الحلفاء وهم يزورون إعلاناتهم للمجتمعات البشرية في العالم ،ونداءاتهم في ميثاق الأطلنطي بوحدة العالم وبحرياته الأربع . يقول «أتأمل اليوم هذا الكلام وأقول لنفسي . يالها من خدعة ! ..كيف استطاع هؤلاء الحلفاء أن يدخلوا في روعنا هذه الأوهام ؟ كيف استطاعوا هم أن يرغمونا على أن نؤمن بالنزوات التي قد تصطنع لنا، ويقنعونا بالأكاذيب التي تقدم لنا على أنها حقائق ..عندما أعلنوا ميثاق الأطلنطي وساحوا في كل مكان هاتفين : عالم واحد وحريات أربع ! ..كيف استطاعوا أن يثيرونا على القوة الوحشية التي تسحق الأمم الحرة، فنصدقهم ونرتمي في أحضانهم كما ترتمي الحملان في أفواه الذئاب.. ونفتح عيوننا في آخر الأمر لنرى أن لا قوة وحشية غير قوتهم .. ويتمزق لنا الستر عن عصابة من قطاع الطرق تلبس- الفراك-،وجماعة من اللصوص تتكلم بلغة النبلاء ..فإذا جهادهم يتوج بمجزرة لم تر الإنسانية أحط منها يوم ألقوا القنبلة الذرية ليبيدوا مدينتين آمنتين بأكملهما ..بسكانهما الوادعين المسالمين ..إنهم لا يحاربون قبل أن يصنعوا راية معنوية تخفي أغراضهم الحقيقية . راية خفاقة بأسمى المبادئ يؤلبون تحتها كل نفس متحمسة للمثل العليا ».

«إلى متى يبقى الفكر ألعوبة في يد القوة؟

٤٠- شجرة الحكم السياسي : ٢٢٠ -٢٢٤.

«إلى متى يظل الفكر أداة دعاية في يد السلطان ؟.
في النظام الديكتاتوري يصدر الأمر إلى الفكر فيطيع».
وفي النظام الديمقراطي تنصب الخدعة للفكر فيقع»(٤١).

٤

وعلى غرار الادباء ورجال الفكر الأحرار في الغرب الذين كانوا ينقدون أحزابهم الديمقراطية في بلادهم ،وهم معها في الأساس ،اتخذ الحكيم ،متأسيا بالكثيرين منهم ،مواقف كثيرة من جوانب الحياة السياسية في مصر منذ أواخر الثلاثينات ،وهو ضدها ،وناقم عليها ،إلى حد دعوته عام ١٩٤٥ إلى قيام (حركة مباركة) أو (ثورة مباركة) تعصف بكل مظاهر الفساد التي كانت تعم نظام الحكم والحياة السياسية في هذه الفترة .وحتى من قبل ذلك ،حيث كانت دعوته إلى عودة الروح منذ مطالع الثلاثينات ،وعلى أساس هذه الدعوة ،فقد اعتبر بعض الثورة ،كلمة الإهداء التي خطها له جمال عبد الناصر على كتابه « فلسفة الثورة» في ٢٨ أيار (مايو) ١٩٥٤ نص وثيقة يحلي بها بعض صفحات أعماله الكتابية .ومن هنا ،فهو يعتبر نفسه ،علي الأقل ،أحد الاباء ،إن لم يكن الأب الوحيد للمستبد العادل الذي دعا إليه الشيخ محمد عبده منذ وقت مبكر .ولهذا ،فقد رحب الحكيم بقيام ثورة ١٩٥٢ ،وعاش في كنفها معززاً مكرماً ،أتيح له الكثير من فرص الكتابة في نقد بعض الأوضاع ،حتى لقد كرمته الثورة بمنحه أعلى أوسمة الدولة من قبل زعيمها جمال عبد الناصر .وبعد وفاة الزعيم في ٢٨ أيلول ١٩٧٠. كانت مبادرة الحكيم بالدعوة إلى افتتاح لإقامة تمثال له في أكبر ميادين القاهرة على حساب الشعب، وافتتح هو نفسه هذه المبادرة بالتبرع بخمسين جنيها من أجل تحقيق هذه الغاية التي لم تتحقق ،وكتب رثاءه الشهير (للفارس والبطل والتاريخ) .وقبل أن يمضي على ذلك أقل من سنتين كانت مفاجأته بإظهار مخطوط كتيب « عودة الوعي». أعلن في إشهاره أن آراءه فيه هي« شهادتي أمام ضميري» ،وأن « هذه السطور ليست تاريخا ،وإنما هي مشاهد ومشاعر استرجعت من الذاكرة ،ولا تستند إلى أي مرجع آخر للفترة بين هذين التاريخين : من يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ،إلى يوم الأحد ٢٣ يوليو ١٩٧٢ ».

٤١-م.ن ٢٥٧ .مقالة بعنوان «يالها من خدعة» -سنة ١٩٤٧.

وقد أثار هذا الكتيب من المواقف والكتابات ،ومن الردود المعارضة في مصر وفي العالم العربي ما يجسد هذا التحول (المضاد) ويستنكره إلى حد الخيانة ،أو ما يقترب منها لدى كاتب ومفكر بارز له شهرة واسعة مثل توفيق الحكيم : تلقفه كتاب اليمين وممثلو الطبقات الجديدة والقديمة التي ترفع راية الرأسمالية ضد الطبقات التي قامت الثورة المصرية ورفعت راية الاشتراكية والديمقراطية باسمها ،إلى حد أن إسرائيل ومخابرات بعض الحكومات العربية أخذت على عاتقها توزيعه وإهداءه إلى المكتبات العامة لتوسيع قاعدة توزيعه وتداوله .كما انبرى الكثير من الأفراد والمؤسسات الوطنية والقومية للرد عليه ،إلى حد اعتبار صاحبه سقط سقطة مدوية ،وألقى به، في رأي بعضهم ،كثيرا من ظلال الشك والريب على مواقفه السابقة

ووصل الأمر بتوفيق الحكيم بعد(عودة وعيه)! أن كتب عريضة رفعها إلى السادات بعد أن جمع عليها تواقيع بعض الكتاب ،بهدف « أن نهيئ له الجو إذا ما أراد المفاوضة مع إسرائيل »(٤٢).

بداية ،وبعد مرور عشرين عاماً على الثورة حتى ذلك الوقت ،يقوده (الوعي العائد) إلى أن الثورة لبست طوال ذلك العمر ثوبا غير ثوبها الحقيقي الذي كان يجب أن يبقى عند(موضة) الحركة أو الانقلاب العسكري .ومن هنا، فهو يراها « ثورة ضد الدستور »(١٩، ٢٠، ٢٣٢) ،ويحس بغرابة أن تصبح الحركة ثورة ، وأن يصبح لها مجلس ثورة يصدر القوانين في حجرات مغلقة دون معارضة ،وبغير مناقشة علنية - (٢١ ، ٢٤٣) .ويتهم الثورة وأصحابها بالاستبداد والديكتاتورية.

وليس أدعى إلى الدهشة والاستهجان مما يبطنه الحكيم من شعور الغرابة والضيق ،وهو يتحدث عن حل(الحكام الجدد) الأحزاب ،وإنشاء محكمة الثورة للقيام (بلعبة) محاكمة رجالات الحكم والسياسة السابقين (الكبراء الفضلاء) ،الذين راحوا يتسابقون على طلب الحظوة ،ويترامون على الأقدام خوفا وطمعا في حلبة التزلف والملق ..(٢٩ ، ٣٤٩).

ويطيل الحكيم في الحديث عما اعتبره سحر جمال عبد الناصر- معبود الجماهير

.٤٢-انظر محمد عودة -الوعي المفقود- القاهرة للثقافة العربية -دار المأمون للطباعة، ١٩٧٥ :٨٥.

المعصوم- إلى حد جعل مواقف الجماهير من الزعيم ومن الأحداث السياسية ،ناتجة عما اسماه (الانفعال ورد الفعل) .وهو يرى أن الزعيم رجل انفعالي عاطفي (مهوش) ،وأنه (لم يكن رجلا سياسيا ،ولم تكن له قط طبيعة السياسة ..فقد كان أقرب إلى طبيعة الكاتب الفنان الحالم العاطفي ،ويظهر أن الظروف ،كما قال ، هي التي دفعته إلى طريق غير طريقه -(٢٩ ٥٥ ٥٦ ٣٥٨ ٣٧٢) .وقد شلت الثقة بالزعيم تفكير الجماهير التي، عندما تحب لا تناقش-(٣٧-٣٥٦) ..ولذلك فقد حكم مواقفها (هستيريا الهتاف والتصفيق).بحيث أصبحت الحناجر هي العقول ،وما كان يبدو على الزعيم ضيق بذلك ،وإنما كانت ابتسامة الرضا ترتسم دائما على شفتيه -(٤٢ . ٣٦٠) ،وأمام تسخير إمكانات الدولة من أجل الدعاية للزعيم ولانجازات الثورة، فقدت مصر والحكيم نفسه الوعي ،وألغيت العقول ،ما عدا عقل الزعيم ،وفي ذلك ،كما يرى الحكيم ،ما يشبه السكر .إلى حد التحطيم المقصود لوعي مصر، وتغييب هذا الوعي-(٧٤ . ٣٨٣ . ٣٩١ ،٣٩٤).

ويتهم الحكيم في كتابه عبد الناصر بأنه عمل على أن يدمج مصر كلها فيه ،وعلى إقناعها بأن عمرها الحقيقي هو عمر الثورة ونظامها ،وأن لا عمر لها قبل ذلك ولابعد ذلك يستحق الذكر .وهذه المحاولة ،في رأيه ،تشبه محاولة ضغط مصر العملاقة ووضعها في علب الثورة إلى حد خنقها -(٧٥ . ٣٩٥).

ويبلغ به الأمر حد الاقتناع بمحاولة تلطيخ الثورة بتهمة استنادها إلى أمريكا التي وقفت منذ قيامها ،إلى جانبها ،وأسكتت الإنجليز الذين كان في مقدورهم إجهاضها في نصف ساعة. ويرى أنه حتى توتر علاقاتها لاحقا مع أمريكا (قيل إنه كان مخططا له في السياسة الامريكية ليؤدي إلى إخراج انجلترا وفرنسا من المنطقة، وتسليم قناة السويس لمصر) (٥٢ ٣٦٩) .وهو يتساءل عما إذا كانت الثورة نظاما طبيعيا أو نظاما مصنوعا نتج عن حركة أزرتها وخططت لها أمريكا لتزرع في المنطقةأنظمة عسكرية على غرار ما فعلته في أمريكا الجنوبية اللاتينية ،لتوقعها أن مصر وقتذاك كانت مهيأة فعلا ومقبلة على نهضة ذاتية تنبت فيها الاشتراكية نبتاً طبيعياً شعبياً (٣٩٠).

ويدفعه موقفه (الواعي) من الثورة ومن سياسات عبد الناصر إلى اعتبار موقفها من ثورة اليمن مغامرة طائشة ، ضاع بسببها أمل المصريين في تحسين حالهم ،حيث كانت هذه الحرب ، بكل تكاليفها ،حربا ضائعة ،تلت هزيمة حرب ١٩٥٦ ، وأرهصت بهزيمة١٩٦٧ ،في رأيه-(٥٨ ٥٩ . ٣٧٤ . ٣٧٥).

(وهذه الاخفاقات المتتالية للثورة وسياسات قائدها) ،جعلت الحكيم يقترح على لسان أحدهم ، أو كأنه يوافق على اقتراحه رقامة تمثال عبد الناصر المقترح فى تل أبيب ،وليس فى القاهرة، لأن إسرائيل ،كما يقول « لم تكن يوما تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية، ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى ،إلا بسياسة عبد الناصر »(٦٧ ٢٨٥).

٥

بدا للمتابعى توفيق الحكيم ، بكل الدوافع ،أن مواقفه فى جميع الفترات السياسية،منذ ثورة١٩١٩ وعودة الروح إلى فترة «عودة الوعي» عام ١٩٧٢، منسجمة ومتماثلة ،وأنها تجسد موقف الأديب في فكره الذهني السياسى الذى عبر عنه ، على عادته ،فى كتاباته كلها ترفع ومثالية ،وإذا صدق هذا الاعتبار على الفترة حتى ١٩٧٢ بعد وفاة جمال عبد الناصر بسنتين ،فإن موقفه بعد هذه الفترة ،قد اتخذ ،فى رأينا منحى مغايراً ومضادا إلى حد التناقض ، بكتابته وبإشهاره مخطوطة « عودة الوعى » حتى إن الكاتب المعروف محمد عودة أضفى على هذا الكتاب صفة «الوعي المفقود»، وأصدر كتابا بهذا العنوان ، يرد فيه على الحكيم ويدحض آراءه ومواقفه. كما كتبت ردود ونشرت مناقشات مناقضة عديدة حول هذا الموضوع/الموقف ،اتخذت المنحى نفسه، وأخذت على الحكيم هذا التحول المضاد إلى حد الانقلاب ،خصوصا وقد فتح أبواب الهجوم العنيف على(الثورة المباركة) التي طالما دعا إليها، وعاش مكرما فى ظلها ،كما اتهم زعيمها، فى انقلابه المفاجئ ،بأبشع التهم،وقد أخذ على عاتقه ،لفترة ما، الدعوة إلى الصلح مع إسرائيل ،إلى حد تبنى هذه الدعوة والتمهيد بها إلى مفاوضات السادات معها ،وعقد معاهدة (كامب د ديفيد).

وهنا: لابد للسؤال عن دوافع هذا الانقلاب وتفسيره أن يطرح نفسه بقوة أمام موقف محير إلى حد الإثارة ،انكسر فيه الأديب الكبير ،وبدا خارجاً عن مثاليته ومبادئه بعد هذا العمر الطويل والشهرة الواسعة.

ويمكننا أن نجد تفسير ذلك كامنا بشكل خاص في عنصرين رئيسين :أحدهما يكمن في طبيعة شخصية الحكيم الإنسانية والفنية، ويكمن الثانى فى حقيقة تفكيره واعتقاده إلى حد الايمان بفكرة « مصر للمصريين » التى تتناقض مع فكرة القومية العربية ،وتتعارض مع دعوة العروبة والوحدة التى تبناها عبد الناصر وجعلها منيسماً

من مياسم الثورة المصرية ،وهدفا رئيسا من أهدافها.

وبالنسبة للعنصر الأول ،فإن آراء الدارسين ،وكلها تمتح من أحداث حياة الحكيم ومن اعترافاته وتسجيله بعض مجريات هذه الأحداث ،تتفق على رصد طبيعة خاصة لشخصيته تجسد فيها ما التقى لديه من آثار حياته الأسرية: بعض صفات والديه وطبائع شخصيتهما وعلاقاتهما ،وما ورثه عنهما من صفة التقنين فى أمور الحياة المعيشية ،إلى حد التقتير والبخل .وكذلك طبيعة الحياة التى عاشها فى البيئة المصرية،وآثار حياته فى باريس ،وما نتج عن ذلك من الإحساس بالتناقض الحاد بينهما ،من أقصى حدود التخلف إلى أقصى حدود التمدن والتطور،مما أورثه ، بسبب ذلك كله ،المنحى إلى الانطواء والعزلة. وقد قاد بهذا المنحى لديه إلى الاطمئنان إلى هذا الشعور العميق لدى الأديب الفنان بالظاهر والباطن فى حياته إلى حد الركون فيما يشبه الكمون فى برج عاجي على عادة أهل الفن لأجل الفن .وقد فرضت عليه هذه العزلة والانطوائية حالة من الاستغراق الذهني أورثته خصائصه المحددة فى حياته بعامة، وفى أدبه ومسرحه بخاصة .ومن هنا ،فإنه يكاد يكون قطع نفسه عن حقائق التجربة الواقعية والعملية المعيشة فى الحياة ،فعاش ،إلى حد بعيد ، على نوع من التفكير النظرى المثالى.وهكذا كلما تقدم به العمر كان يستغرق فى هذا النمط من الحياة والتفكير والتعامل، إذ كانت تقوى وتتعمق لديه هذه الخصائص لتبعده أكثر عن واقع الحياة اليومى وتجاربهاالشخصية المعيشة . ولولا مواهبة الأدبية والفنية الكبيرة ،فهل كان يمكن السؤال دونها ،عن طبيعة العقد النفسية ومدى تأثير هذه العقد على حياة الإنسان ،وعلى نفسه لديه؟ ولما كان الحكيم الأديب يعتمد فى شئون حياته الأساسية على وظيفته ،وربما ريع نتاجه الأدبى بخاصة ،فإن هذا النمط من الحياة ،أو الموقف منها قد عمقا فى نفسه الشعور بالروتين والجبن البيروقراطى الإدارى الذى ظل محكوماً بحساباته المادية إلى حد البخل الذى شاعت طرائفه فيه مع أهله وفى المجتمع ،وبحساسية خاصة تجاه المستقبل والوظيفة .يذكر هو، بقدر من الترفع والمباهاة بتمسكه بمبادئه ،أنه رفض ذات مرة تلبية دعوة جمال عبد الناصر له إلى تناول الشاى فى بيته(*) .ويلقى محمد حسنين هيكل الضوء على هذه الحكاية بطريقة مغايرة ،إذ يذكر أن الحكيم كان قد طلب لقاء الرئيس كى يشكره بنفسه على تكريمه له باستثنائه من قانون الإحالة على المعاش حسب قانون خاص، ثم تقاعس الحكيم نفسه عن ذلك اللقاء ، بسبب إصراره على الحصول على إذن بذلك من وكيل وزارته ،قائلا

لهيكل ..نعم. إذن من وكيل الوزارة ..أنا موظف ،ووكيل الوزارة باقى (كذا) ،ولكن عبد الناصر من يدرى قد يبقى اليوم ويذهب غداً(٤٢) ويذكر هيكل أن شكوى الحكيم إلى عبد الناصر يوم لقيه بمناسبة افتتاح الأهرام ،كانت من ارتفاع الأسعار فى كافتيريا الأهرام.. وأن عبد الناصر أمر يومها أن تكون كل طلبات توفيق الحكيم مجانا على حساب الاهرام(٤٤) .ألا يجسد هذان الموقفان طبيعة وأبعاد الشخصية الإنسانية التى نضجت وشاخت على هذا السلم لدى الحكيم / الأديب الفنان ؟ ففيهما نحس بأثر البيروقراطية ،وبما يثلم النبل فى إنسانية الإنسان / الفنان الكبير الذائع الشهرة والصيت ..ما يجعل من السهولة وفى الإمكان أن تكسر أنفة النفس ،وأن تمس شهامتها الإنسانية من داخلها .وفى ذلك أشد حالات الانكسار ، وأكثرها مدعاة لتهافت النفس ولكبوات جوادها فى الوقت الصعب غير المناسب.

وإذا كان يمكن للدارس أن يجد بعض الدوافع فى انقلاب الحكيم على الثورة والناصرية فى إمكان وقوع بعض الأخطاء والمآخذ فى التطبيقات الديمقراطية والاشتراكية ،وهى أخطاء لا يخلو من الوقوع فيها إلا من يعملون ،ولا يكاد يخلو من الوقوع فيها أحد ممن يأخذون على عواتقهم أن يجدوا ويعملوا ،كما كان يحلو لعبد الناصر أن يقول ويكرر فى كثير من المواقف ،فإن العنصر الرئيس الثانى الذى أدى إلى تردى الحكيم ،وأودى به إلى هذا المنقلب المضاد ،هو اعتقاده إلى حد الإيمان بفكرة« مصر للمصريين » ،وبالتالى عدم قناعته بفكرة القومية العربية والعروبة والوحدة. وعلى هذا الأساس ،وبعد الانحراف الذى لحق السياسة الرسمية بعد وفاة عبد الناصر ،وجد الحكيم فى هذه الفكرة /الهدف وما ترتب عليها من مسئوليات عظيمة تحملتها الثورة وقام بها عبد الناصر ،مسوغاً له فى هذا الانقلاب، خصوصا وقد كان يشايعه فى فكرة المصرية إلى حد التعصب ،بعض رفاق عمره من مشهورى المثقفين المصريين من أمثال حسين فوزى ولويس عوض ،وكلهم ورثوها عن أمثال أحمد لطفى السيد ،وسلامة موسى ،وطه حسين وغيرهم من جيل الرواد الأوائل ،ثم إن ثلاثتهم كانوا ضمن من تربعوا على عرش السلطة الثقافية فى مصر فى عصر عبد الناصر.

لم يكن توفيق الحكيم يؤمن بفكرة القومية العربية ،إذ كان يرى « أن مصر والعرب طرفا نقيض: مصر هى الروح ،هى السكون ،هى الاستقرار ،هى البناء ! .. والعرب هم

٤٢- أنظر عودة الوعى :٥-٨ شجرة الحكم السياسى :٢٩٧-٢٩٨.

٤٣-٤٤ أنظر محمد عودة- الوعى المفقود :٧٨.

المادة، هي السرعة، هم الطعن ،هم الزخرف (٤٥) وانطلاقا من هذه القناعة راح يميز ،باعتزاز ،ما أسماه «العقلية المصرية» و«الفن المصرى» .يقول مثلا :... إن اختلاطنا بالروح العربية، هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة ،وإن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ..لابد لنا إذن أن نعرف من المصرى ؟ومن العربى؟(٤٦).

وتتجسد هذه القناعة التى استقرت فى ذهن الحكيم وتخمرت مع مضى العمر ، وظلت تلازمه ملازمه ظله،من خلال رده على سؤال غالى شكرى له عن مدى (العداء) بين الهوية الوطنية المصرية ،وبين الهوية القومية العربية ،حيث يقول ضمن رده «...إننى أجيد الإحساس بالجيران والأشقاء ،غاية ما هنالك أننى أسمى الأشياء بأسمائها ،ولا أتعلق بالأوهام أو بالأمانى السياسية ..ولست أظن أن الداعين إلى العروبة هم الخطر الماثل ،لو أننا دفعنا الثمن غاليا فى سبيل الأوهام الناصرية .الخطر هو تلك الدعوات السلفية المعادية للهوية الوطنية مصرية كانت أم عربية»(٤٧).هذا أمام ظهور الدعوات السلفية ،أما قبل ذلك ،فهل تمثل دعوة العروبة القدر نفسه من الخطر على الهوية المصرية ،فهى مستهدفة منهما كليهما ، فى نظره؟.

ولقد أعمى الحكيم موقفه المعادى لفكرة القومية والعروبة عن تبصر حقيقة التأييد المبدئى المشرف الذى اتخذه عبد الناصر تجاه ثورة اليمن فى تلك الظروف العاتية .وكان من ثمار تضحياته حقاً ،بقاء تلك الثورة واستمرارها رغم التعقيدات والعواصف التى ظلت تحدق بها ولم يستطع الحكيم أن يرى فيما أسماه «مغامرة اليمن» إلا (علب الطعام المحفوظ التى كانت تلقى للجنود من الجو ،وكانت تفسد فوق جبال اليمن) .كما لم يستطع أن يقدر إلا «ضياع أملنا فى تحسين حالنا»(٤٨).

وزيادة على ذلك ،فقد عمى الحكيم عن مواثيق الثورة وعن فلسفتها وخططها وعن كل إنجازاتها فى ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم ،مما أحيا الشعور بالاعتزاز والكرامة القومية فى نفوس جماهير أبناء الأمة ،وجعل مصر تبدو فى فترة ازدهار

٤٥- تحت الشمس الفكر :٦٠ ، ٥٠ ، ٥١ .«الغالبة» ،كذا فى النص ،وقد تكون «الغالية».

٤٦- تحت شمس الفكر ٦٠ ، ٥٠ ، ٥١ .«الغالبة» ،كذا فى النص ،وقد تكون «الغالية».

٤٧- أنظر توفيق الحكيم .الجيل والطبقة والرؤيا :١٦٦.

٤٨ شجرة الحكم السياسى :٢٧٥.

الناصرية النموذج والمثال المحتذى فى استقلالية الموقف وتحدى الاستعمار والإمبريالية أمام دول العالم الثالث وعدم الانحياز.

وعندما تقررت سياسة (الانفتاح) التى رسمتها الدولة بعد وفاة عبد الناصر ،بدأ تنفيذ مخطط الحملة عليه وعلى إنجازاته أساسا لبرنامج العمل ،فبدأ التراجع عن سياسه عروبة مصر، من أجل توفير المناخ الملائم لهذا الانفتاح الذى أودى بمصر فى مآله الاخير إلى مهاوى البلاء والتردى الاقتصادى .وفى هذا الجو انبرى الحكيم يضع نفسه اداة رئيسة فى جهاز الدعاية الرأسمالية ، فراح يدعو للانفتاح طريقا للتقارب مع إسرائيل وإلى الصلح معها. وهو يعترف فى مقابلته مع غالى شكرى بأنه(ومعه حسين فوزى ونجيب محفوظ) قد «سبقنا السادات بخمس سنوات» فى الدعوة إلى الصلح مع إسرائيل وهو ، فى الحقيقة ، غافل عن المصلحة الحقيقية لمصر التى ظل يعلن أنه نذر نفسه وحياته وأدبه من أجل عودة الروح إليها

وفى هذه الفترة التى بدأت فيها الحملة على الناصرية ،التقى الحكيم مع السادات لقاء المصالحة الشهيرة عام ١٩٧٢ ،حيث رحب به السادات ،وقد أسر إليه الحكيم نبأ «عودة الوعى» ،بمثابة هدية يستعين بها النظام فى سياسته الجديدة على فتح بعض الأبواب الموصدة . وبلغ سريان الحقد فى نفس الحكيم مع تراخى الزمن حداً دفعه إلى إضافة فقرات عديدة إلى نص كتابه المطبوع عام ١٩٧٤ ،وقد ضمنه كتابه «شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩- ١٩٧٩» المطبوع عام ١٩٨٥ ،فأضاف إليه إضافات عديدة مختلفة فى أطوالها ، أشار فى إحداها إلى ارتباط الثورة المصرية بالمخططات الامريكية (*) .وهذه الاضافات فى معظمها تحمل الإساءة إلى الثورة وإلى زعيمها عبد الناصر.

وفى نهاية هذا البحث، هل يمكن الاستعانة بتفسير غالى شكرى (ظاهرة) توفيق الحكيم المنتمى إلى الطبقة المتوسطة فكريا وعاطفياً ،حيث يقول« ..لم يكن توفيق الحكيم «ثوريا» بالمعنى الناصرى ولا بغيره من المعانى مطلقاً. وإنما كان برجوازياً وطنياً يشهد مصير طبقته فى تطورها المحتوم ،يشهده من داخل الطبقة لا من خارجها ،أى إنه لا يطل عليها من موقع النظام الناصرى الذى تطابق حيناً واختلف مع هذه الطبقة .ولا يطل عليها أيضا من موقع الطبقات الأخرى الحاضرة فى صميم المشهد الاجتماعى الجديد،فضلا عن أنه لا يطل عليها من مكان ما فوق الطبقات».

«لم يعن الحكيم بثورة يوليو ، إنما من خلال تأثيرها الإيجابى والسلبى على طبقته

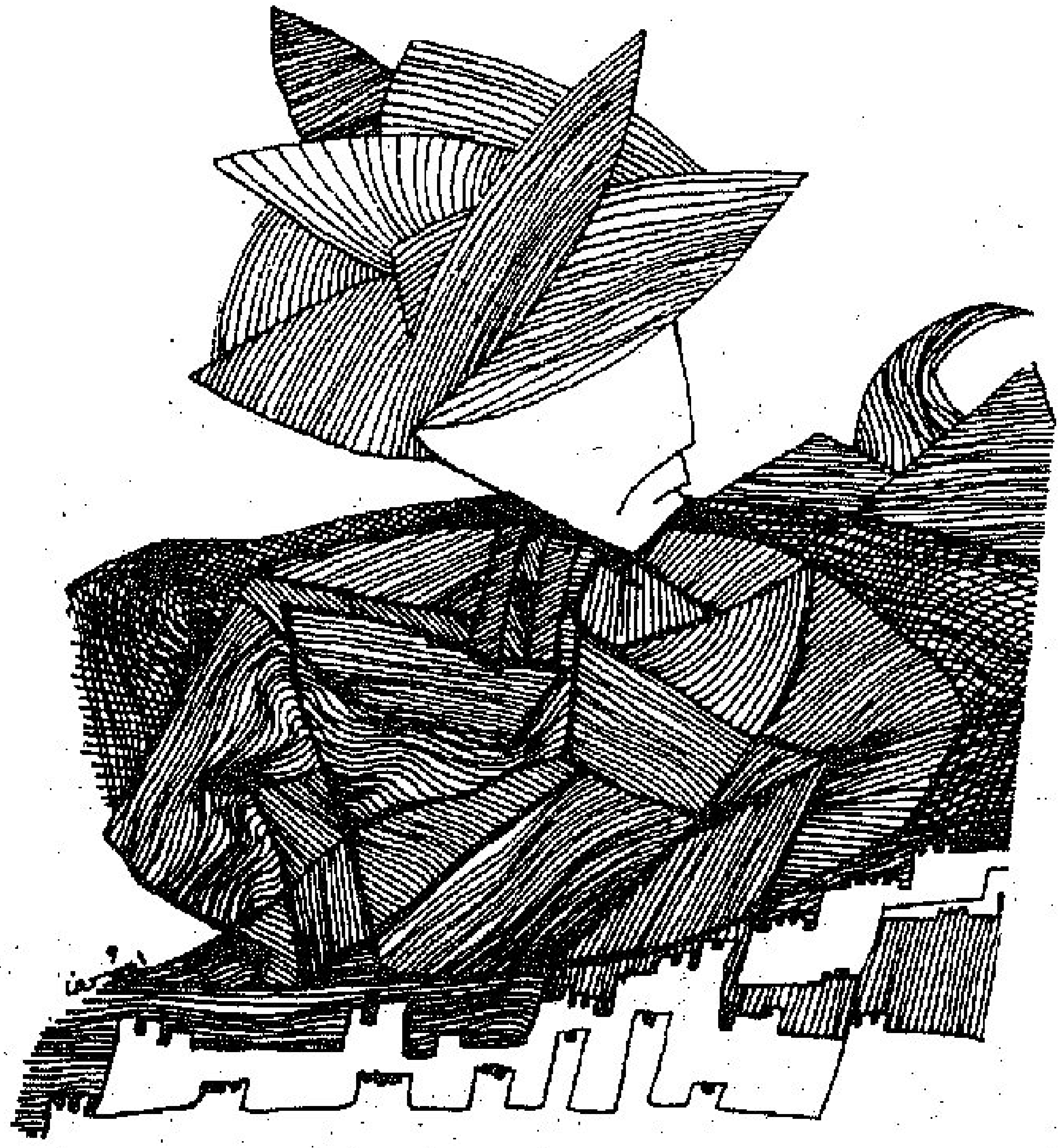

(ومشروعها الفكرى -السياسى -الاجتماعى) ..توفيق الحكيم أيد مصالح ورفض مصالح .إنه لم يؤيد مصالح «الثورة» ،وإنما دعم إجراءات الثورة من أجل- الطبقة- ،ورفض إجراءات الثورة ضد الطبقة(٤٩).

ومهما كانت درجة صحة هذا التفسير ،فإن الحكيم ،بالاضافة إلى ما ذكرناه حول هذه الظاهرة، يظل يجسد فى هذه المرحلة ،محدودية الأفق السياسى ،وضعف الوعى به إلى حد الفقدان. وهكذا راوح بوعيه بين الحضور الطاغى فى مرحلة الشباب و«عودة الروح» ،وبين التوارى إلى حد الفقد والخسران فى مرحلة الشيخوخة و«عودة الوعى»!.كأنه فى ذلك كمن وصل فى الزمن الأخير ،الصعب وغير المناسب.

٤٩- أنظر توفيق الحكيم ..الجيل والطبقة والرؤيا : ١٣٢ -١٣٣.

دراسة

عبد الله الطوخى: دراما الحب والثورة

ف.ن

كثيرة هى المشكلات التى تواجه الكاتب فى بلدان العالم النامى التى لم تلتحق بعد على نطاق واسع بثورة الصناعة فبقيت مدنها رغم اتساعها وكثرة عدد سكانها قرى كبيرة فيها ما أسماه الرئيس المصرى الراحل أنور السادات بأخلاق القرية وعاداتها وتقاليدها التى تمارس تأثيرها الكبير على التكوين الثقافى حتى للمبدعين.

وإذا ما نجح المبدع - عن طريق الوعى - فى نقد هذا التكوين وتطويره وتنقيته من الشوائب فإنه يظل يلاحقه من خارج نفسه قادما مع العادات والتقاليد والأعراف والأوامر والنواهى التى تستبد بالمجتمع التقليدى وتجعله يفرض سطوته على الأفراد ويخضعهم قسرا لهيمنته ورقابته فيعوق تحررهم وانطلاقهم الضروريين لسكان المدن.

علي هذه الخلفية التى تصارع فيها الحداثة بل وربما ما بعد الحداثة أيضا ضد العالم التقليدى القديم وأفكاره ورؤاه تنشأ صعوبات بالغة أمام المبدعين الذين لا يندر أن يتحايلوا عليها باللجوء كثيرا إلى الرمز فى عملهم أو محاولة استلهام التاريخ للتحدث عن الحاضر الملتبس الذى تصعب مواجهته بصراحة، أو الكشف عن حقيقته ورؤية المبدع لها دون تزوير أو مداراة.

فإذا ما كان المبدع الذى باستطاعته دائما أن يضع مسافة بين ذاته الخلاقة وموضوع الإبداع الفني، بل يستعير ضمائر أخرى للحديث عن نفسه - إذا كان هذا المبدع يستطيع أن يتخفى أو يحتجب عبر مجازات الفن، فإن كاتب السيرة يعجز دائما عن ذلك، وهكذا نادراً ما نجد سيرة ذاتية لمبدع أو سياسي أو شخصية عامة خالية من المناطق الغامضة ومن الفجوات التى يستطيع القارئ الذكى أن يشعر بها، ومن الفراغات التى تملؤها النقاط الموجهة للمتلقى اللبيب الذى هو بالإشارة يفهم، وهو بالحدس يستكمل مالم يستطع الكاتب أن يخطه فى سطور لأنه خضع بهذه الطريقة أو تلك لضغوط مجتمع القرية الذى لم يتلاش رغم العيش فى المدينة.

أما إذا كانت المرأة طرفا رئيسيا فى هذه السيرة فإن درجة الصراحة والوضوح فيها لابد أن تتقلص نتيجة لوضع المرأة الشائك والملتبس فى مجتمعنا، إذ لا تسمح الأعراف والتقاليد لا للرجل ولا للمرأة بالحديث الحر عن علاقتهما بما فيها من تقلبات وصراعات، من مودة وتوتر، من حب وغضب وكره وثورة، ومن صراع فكرى غالبا ما يكون موضوعه هو حرية المرأة والمدى المسموح به لها للسيطرة على مصيرها والتحكم فى حياتها.

ذلك أنه وبالرغم من دخول المرأة إلى مجال الحياة العامة منذ بداية هذا القرن وفى أتون الثورة الوطنية المعادية للاستعمار في مصر، فما يزال هذا السؤال الحائر يواجهها حتى وهى مستقلة اقتصاديا، إذ أن الاستقلال الاقتصادى هو أساس أولى لحريتها، ولا أتحدث هنا عن القيود القانونية التى يمكن أن تواجهها امرأة عاملة ومستقلة حين تعجز عن تطليق نفسها، أو تجد نفسها ممنوعة من السفر لأن الزوج رفض أن يؤشر بموافقته على إصدار جواز سفرها وهو ما حدث لنساء مرموقات فى السنتين الأخيرتين دبلوماسيات ومضيفات طيران..

وإنما أتحدث عن وعى المرأة نفسها بذاتها ونظرتها التى عجزت فى الغالب عن الإفلات من قبضة العالم التقليدى والعرف الاجتماعى القديم الذى ينبعث مجددا بكل قوة مع الموجة السلفية الرائجة الآن، إن المرأة نفسها ترى نفسها كرهينة تستمد مشروعية وجودها من الانتساب إلى الرجل، ويظل شرط تحققها الإنسانى ناقصا لو عجزت عن تأكيد هذا الانتساب خاصة بالزواج.

أما النساء اللاتى يتحدين كل هذه الأوضاع ويتعاملن معها بوعى نقدى وسلوك

متحضر ومتسق وحر فإنهن في الغالب الأعم شقيات باختيارهن الصعب، لكن هذا الشقاء نفسه هو الضريبة التي لابد من دفعها فداء حرية الأجيال القادمة من النساء التي يمهد لها هذا الجيل في ظروفه المعقدة وحريته التي تنضج في ظل الأزمة والتراجع طريقا جديدا لحرية شاملة.

حين يكتب رجل سيرة حياة طرفها الثاني والأصيل امرأة مفعمة بروح الإقدام مثلما هي حال الأديب المصرى عبد الله الطوخى وزوجته الكاتبة الدرامية والمناضلة فتحية العسال وحين يكون هذا الطرف الآخر في العلاقة أي فتحية - على اتم استعداد - لدفع الضريبة وتحمل الشقاء المحتمل فلابد أن تكون هذه السيرة جديدة وجديرة بالتامل والتحليل، فإذا كان كاتبها أديبا يمتلك أسلوبا عذبا بسيطا وسلسا كالنهر الذى سبق أن كتب عنه عبد الله الطوخى واحدا من أجمل الكتب.فإن الامر يختلف .

حين يكون الأمر كذلك تصبح السيرة التي منحها كاتبها عنوانا دالا هو «دراما الحب والثورة» عملا إبداعيا من الطراز الأول، غنيا بقدرته على الإمتاع وممتعا بغناه وتعدد جوانبه.

يبدأ هذا الجزء من السيرة بعد خروج المؤلف من السجن الذى قضى فيه عامين بسبب انتمائه لأحد التنظيمات الشيوعية السرية التي سرعان ما هجرها بعد خروجه تنفيذا لقرار كان قد اتخذه وهو سجين بألاّ يقايض حريته كما يراها ككاتب بالانتماء إلى تنظيم يتحكم في حياته ومصيره، فضلا عن أنه كان مؤيدا متحمسا لثورة ٢٣ يوليو وقائدها جمال عبد الناصر ورأى أن هذه الثورة هي تتويج للنضال الشاق الذى خاضه الشعب المصرى على امتداد السنين، ولعل بعض أجمل الفقرات في هذه السيرة هي الحوار الخيالى الذى يجرى بين كاتبها وبين «جمال عبد الناصر» حيث يدور صراع رفيع المستوى بين مثقف غيور على صورة الثورة ونقائها، وسياسى منغمس في الواقع العملى بضروراته وحاجاته العملية التي كثيرا ما تتناقض مع المبادئ المجردة.

كذلك كانت سنين السجن تلاحق «عبد الله» تماما كما لاحقته الدولة البوليسية من قبل ومن بعد، وقد وجد نفسه وهو صاحب الأسرة - التي أخذ عددها يكبر - عاطلا عن العمل يلاحقه ماضيه السياسى ويقف له بالمرصاد رغم أن في البلاد ثورة، وتصبح أسرته مهددة في استقرارها رغم أنه يؤيد الثورة تأييدا حقيقيا

ويسوق لذلك أسبابه كما في الجزء الأول من هذه السيرة» سنين الحب والثورة «الذى نلتقى فيه «بفتحية العسال» مع الصفحات الاولى هى التى قالت له رسالة جميلة هربتها إليه وهو سجين «إننى قدرك».

«تصورت لو لم تكن هى فى انتظارى ليلة الإفراج عنى، كم كان خروجى من السجن سيكون باردا ومعتما وكئيبا»

وفتحية ليست مجرد الطرف الثانى فى علاقة سرعان ما سنكتشف ما فيها من ندية وتكافؤ وتكامل.. ولكنها موضوع الحياة ذاته.. موضوع الفن لا كملهمة كما كانت المرأة مع كبار الكتاب والمبدعين فى القصص التى قرأناها عن حياة هؤلاء، وإنما كفكر ووجهة نظر ورأى يتفق ويختلف وعالم بكامله سوف تنضج في ظله موهبتها هى أيضا ككاتبة تخلق موضوعاتها وتبرز فى فن الحوار الذى يؤهلها لكتابة مسلسلات إذاعية وتليفزيونية ومسرحيات «فى كل مرة وأنا أمسك بالقلم لأكتب أجد وجهها أمامى ملامحها تذكرنى بمواقفها، تصرفاتها، كلماتها، حتى إننى فكرت أن أقول لها: تعالي يافتحية، واكتبى أنت ما أريد أن أكتبه أنا عن حياتى التى غدت هى حياتك» وسوف نكتشف فيما بعد وفى تعبيرات صريحة أن الكاتب تمثل صورة «بيجماليون» الفنان الإغريقى والإله الذى أراد أن يبث الحياة فى تمثال أحبه لجلاتيا، وحين تسرى الحياة فى دمائها، حين تستقل عن إزميله، وإرادته وتغدو هى نفسها لا أكثر ولا أقل، يعصف به الغضب لأنه يفقد سيطرته ويعجز عن كبحها وتملكها..

ففى الحب درجة من الرغبة فى التملك تقل أو تزيد، لكن «عبد الله الطوخى» الذى قرأ لحبيبته فى سنين الزهو من كتاب «جبران» كان يتحوط لما يمكن أن تحمله إليه حرية رفيقته من ألم ففى «دراما الصراع الأزلى الخطير والحتمى بين الحب والحرية» وحتى يحتفظ لكل من الحب والحرية بالمساحة الضرورية للتنفس وامتصاص أشعة الشمس ولفحات الهواء، قال لهما جبران:

«ليملأ كل واحد منكما كأس رفيقه، ولكن لا تشربا من كأس واحدة. ليعط كل واحد من خبزه لرفيقه، ولكن لا تأكلا من الرغيف الواحد، ولتقفا معا، ولكن لا يقترب أحدكما من الآخر كثيرا، لأن عمودى الهيكل يقفان منفصلين.. أجل .. وليكن بين وجودكما معا فسحات تفصل بعضكم عن بعض، حتى ترقص رياح السموات فيما بينكم...»

ورغم هذا «الدستور» الذى وضعاه لحياتهما إلا أن الصراع المحتدم فى الحياة الاجتماعية والسياسية، والتراث الثقافى الموروث والمتراكم بأبويته شديدة القبضة والتى تضع الرجل على العرش سيداً على نسائه، كل هذا الإرث الذى يكذب من يقول إن بوسعه التخلص منه بالكلام تتأتى عبارات الكاتب عن زوجته التى كان - أبوها قد منعها من استكمال تعليمها بعد المرحلة الابتدائية لأن المرأة مكانها البيت «ولأن ثدييها قد برزا» كما تحكى هى، يقول عبد الله الطوخى:

«ولأننى كنت أحس بأننى شمس حياتها ومصدر الضياء لها، فلم يهن على أن أردها إلي منطقة الحريم المعتمة التى انتشلتها منها..»

وهو يفترض أنها كانت ستقبل هذه العودة أو أن يردها إلى العتمة كأنها شئ. إنه شعور المنقذ السيد المزهو بشهامته ونبله والمتصدق بهما على امرأته ولكنه سرعان ما يراجع نفسه بروح نقدى نزيه «كيف أفكر ولو للحظة بعزلك عن مجال الحياة بالخارج والاحتفاظ بك معلبة في البيت، أو بطة برية مربربة من أجل لحظات المتعة والهوى جارية وراعية للأولاد...»

ويستدعى على الفور حكايات بالغة الدلالة عن تناقضات بعض - بل قل أغلب المثقفين الثوريين الذين يفصلون بين شعاراتهم البراقة التى تدعو إلى تغيير العالم وتبشر بقيم إنسانية جديدة، وبين ممارساتهم المتخلفة والرجعية خاصة فيما يتعلق بالمرأة- ويحكى لنا عن زيارة يقوم بها إلى أحد رفاق السجن بعد خروجهما، وإذ به يستمع وهو يهم بدق جرس الباب إلى مشاجرة محتدمة بين الصديق وزوجته:

«كان يكيل لها الاتهام كالطعنة، كيف سمحت لفلان (...) بالدخول إلى البيت وأنا لست موجودا فيه (وفلان هذا صديقه ورفيقه).

ويستمع الكاتب لرد الزوجة وهى تقول:

«بألم واشمئزاز: أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. يبقى انتم ناس كدابين .. يتوع كلام وبس.. وعشان كده أنا ماعنديش ثقة فيك ولافى أفكارك ، ولا فى أى حاجة تخصك يا حضرة الزعيم».

ولأن هاجس البناء الفنى يظل مسيطرا على الطوخى حتى وهو يكتب سيرة تتسم بالتلقائية فإنه يسوق فى مكان آخر قصة صغيرة مشابهة وإن معكوسة عن زوجة أحد أصدقائه الذى كان ما يزال مسجونا وهى صديقة زوجته فتحية، وجاءت

لزيارتها ولم تكن فتحية فى البيت بينما هو نفسه يعيش حالة من الرغبة العارمة الشبقية، وكانت المرأة جميلة تماما كما تصور المرأة التى يشتهيها، وكانا وحدهما، رجل وامرأة والشيطان ثالثهما كما يحب الذين لا يثقون فى قوة الإنسان الروحية والأخلاقية أن يصفوا الخلوة بين الرجل والمرأة.

يقاوم نفسه مقاومة الأبطال «ورحت أجاهد كى أستعيد هدوء أنفاسى..»

فماذا لو كان الوحش قد انتصر» «فى ذلك اليوم أحببت نفسى مثلما لم أحبها من قبل أبدا..»

تتوقف السيرة أمام المحطات الرئيسية في مجموعة من علاقات الكاتب السياسية والمهنية ولكن المركز الأساسى لها يظل علاقته بزوجته، موجات الصعود والهبوط، تحولها من أول قارئة وناقدة لأعماله إلى كاتبة مستقلة بذاتها، اختلافها العاصف معه فى السياسة، في تقديره العالى لكل من «جمال عبد الناصر» و «أنور السادات» فى رفضه للعمل الحزبى المنظم وانخراطها هي فيه فى لحظات الغربة والعزلة بل النفور، وهو يحكي قصة طلاقهما بعد أن ظننا أن ما كان بينهما قد انتهى وهما يسكنان فى شقتين متجاورتين ومفتوحتين علي بعضهما البعض.. ثم كيف عادا ليتحابا وتتعمق الصداقة بينهما في ظل الطلاق الذى كان ذروة من ذرى البرودة والعزلة فى علاقتهما.. وفى صرخة مدوية سبق أن صرخت مثلها فوضعها الزوج لا - الكتاتب المسرحى بالنص على لسان إحدى بطلاته..

تصرخ فيه فى لقاء لهما في بيروت المحاصرة سنة ١٩٨٢ والتى جاء إليها كل منهما عن طريق غير طريق الآخر ليساندا المقاومين فيها:

«يا راجل حرام عليك .. حتى بعد الطلاق، وفي لحظة نفسى أحس فيها إنى حرة.. و أنى با اعمل عمل كبير لوحدى بعيد عنك.. مش هاين عليك لازم تفضل كاتم على نفسى وإنك إنت الموجه والمسيطر.. وإنى طفلة وانت الكبير وخايف على .. ولازم توجهنى .. خلاص (وعلت صرخاتها) كفاية استاذية.. كفاية تسلط ودكتاتورية ارحمنى.. حرام عليك.. سيبنى أعيش حياتى.. مرة..»

إن أمانة كاتب السيرة وهو يسوق هذه الصرخة بحذافيرها لا تجعلنا نكف عن التساؤل عما أخفاه وهو يحكى وما كان مقدمة لوصول رفيقة حياته لهذه الذروة من الغضب.

ألم نقل إن كتابة السيرة هى عمل أكثر تعقيدا مما نتصور فى بلد تحكمه

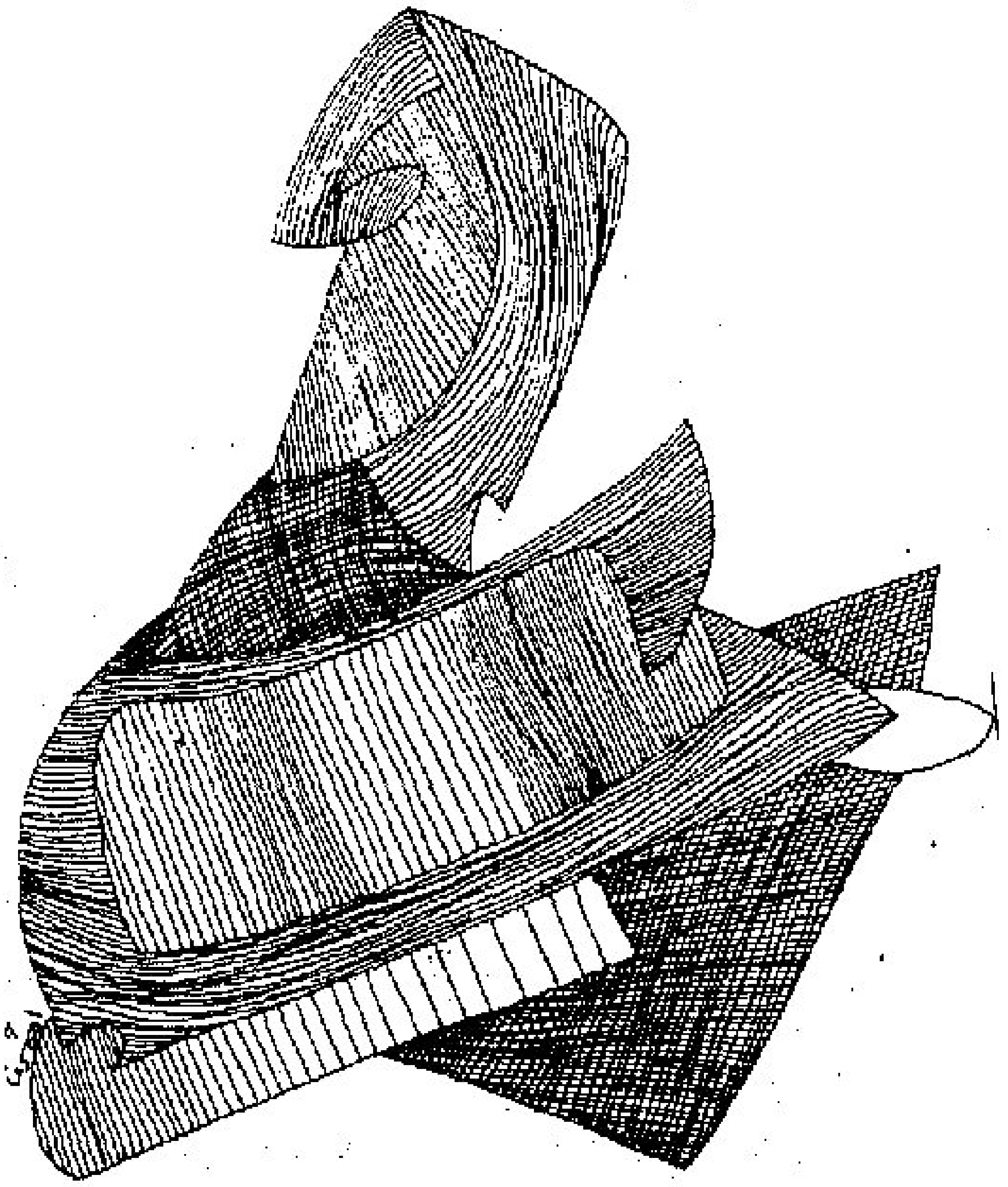

الأعراف القديمة وعيون الرقباء العلنيين والسريين بل وحرج أقرب الناس إلينا. حين نشر «عبد الله الطوخي» حلقات الجزء الاول من السيرة مسلسلا في مجلة «صباح الخير». «وعقب نشر فصلين عنوانهما: «كيف عرفتها»؟ «وأغنيات الحب المطارد» ذكرت فيهما لقائي الأول بفتحية، كذلك أول قبلة لنا وكانت بين شواهد القبور فوجئت بها تخبرني بأن «صلاح» ابننا الأوسط المقيم في الغردقة (بعد ترحال واسع في بلاد العالم) قد اتصل بها تليفونيا وقال لها، مغلفا قلقة بشئ من روح الفكاهة – ماما.. قولي لبابا يحاسب شوية في الكتابة عنك حضرتك مراته صحيح لكنك في نفس الوقت أمنا والصراحة في الحاجات دي برضه لها في بلادنا دي حدود».

ويذكرنا هذا الغضب بما قاله الأديب الكبير «نجيب محفوظ» بعد قراءته لمذاكرت «لويس عوض» «أوراق العمر» التي تحدث فيها الأخير بصراحة عن تحول إحدى بنات الاسرة للإسلام حتى تتمكن من الطلاق من زواج تعيس بعد أن عجزت عن الحصول عليه من الكنيسة بالإضافة إلى تفاصيل أخرى من هذا النوع، وقال «نجيب محفوظ»

– لويس عوض فضح عائلته..

إنه الإرث القديم يظل يعاود الظهور كلما أظلمت الدنيا .

الديوان الصغير

أحلام المصرى وسكاكينه

(مختارات من قصص محمد عيسى القيرى)

إعداد وتقديم:

حلمى سالم

*   *

قطب الصمت

«ولأنك فقرى ،ومالكش نصيب فى بحور الشهد الأبيض والخمرة السايلة من نهر المسيسيبى المبروك ،فانزاح م السكة وموت ، أحسن لك».

هكذا كتب محمد عيسى القيرى فى نصه(القصة-القصيدة) :«مش عارف» ،وكأنه كان يصدر إلى نفسه أمراً وجودياً واجتماعياً ووجدانياً ،وقد نفذ ذلك الأمر تنفيذاً حرفيا : فمات.

عن بضعة وأربعين عاما رحل محمد عيسى القيرى تاركا حسرة فى قلوب أهله وأحبابه ،وتاركا وعداً طيباً باكتمال التحقق الأدبى ، الذى لم يكتمل.

قارئ نصوص محمد عيسى سيلمس ثلاث خصائص رئيسية فيها:

الأولى :هى المزج العميق بين الواقعى والغرائبى ،فيما يمكن أن يسميه النقاد «الواقعية السحرية».

والثانية: هى توليفته المحكمة بين اللغة الرصينة المكّنة واللغة السيارة المبذولة، مما أنقذ نصه من الجمود اللغوى من جهة ، و من التخفف الركيك من جهة ثانية.

والثالثة : هى حضور بعض الاجتراءات الفنية والجمالية ،من قبيل كتابة نصوص قصصية« بالعامية » الصرف ، أو كتابة نصوص تقف فى التخوم بين القصة والقصيدة فيما أسماه بعض النقاد بالكتابة «عبر النوعية».

أما شخصه الصامت (الذى أسماه د. عزازى على عزازى «قطب الصمت»)فلم يكن سوى« رسالة » إلى المتكلمين كثيراً والثرثرين طويلا , رسالة مليئة بالأحلام والسكاكين.

لاتنعى « أدب ونقد » فى محمد عيسى القصاص الجاد ، أو أمين مساعد حزب التجمع فى الاسماعيلية ، أو أحد كتابها المتطوعين المحبين ، فحسب ، بل تنعى فيه-قبل ذلك كله -المثال النابض لشرف الروح وحياء الرجال وعفة النفس.

ح. س

عمارة البيه

انت الآن على مشارف «كفر حرب»، صدق. لعلك تظن أنك على أهبة الدخول إلى اكثر احياء المدينة رقياً إذا ما اصطدمت عيناك بالمبنى الضخم بواجهته الفخمة ومدخله الرخامي، لا تنخدع،فإنك إذا ما مضيت في طريقك فلسوف ترى البيوت الواطئة المتواضعة خلفها ،قد يدهشك أن تلحظ-إذا ما دققت النظر قليلا -أن المبنى الكبير غير مأهول بالسكان رغم ما يبدو وعليه من قدم الطراز، وإذا ما كنت فضوليا وأردت أن تعرف السبب فخير ما تفعله أن تتجه رأسا إلى المقهى المقابل له حيث تحتسي مشروباً أحمر يشبه الشاي إلى حد ما، بينما يحكي لك «رجب» وربما «بيومي» -إن كان موجوداً- حكاية «عمارة البيه»

***

في نفس الموعد -لا يخلف يوماً- يأتي، وعلى ذات الكرسي يقعد وبعد دقائق يكون قد رشف من فنجان قهوته «السادة» رشفتين ،يزيح «الصينية» بأكوابها جانبا ويخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة، يأخذ منها قطعا معدنية لامعة عليها نقوش ورسومات ويرصها على الطاولة أمامه، يرنو بعينيه إلى المبنى الهائل الفخامة الذي يجثم قدام المقهى، يلملم الأوسمة اللامعة ويضعها بعناية شديدة في علبته، يقفلها ويضعها في جيبه، وهو يمصمص بشفتيه يتمتم «رحمك الله يا جدي».

قد يسأل رجب: ألم يأت بيومي؟

فيجيبه رجب دائما: على وشك الوصول.

فإذا ما جاء بيومي يهرع إليه ويقبض بيده السمراء النحيفة على اليد البضة البيضاء.

-شاي يا رجب، ما الأخبار يا بيومي؟

-ليس هناك جديد يا بيه، أنت تعرف سعادتك أنني أبحث عن مشترين غرباء عن البلدة لم يسمعوا القيل والقال ،العمارة شكلها مغير لكل من يبغي الشراء، ولكن أنت تعرف سعادتك. يلقي بنظراته إلى المبني الضخم ويتنهد «رحم الله جدي».

-على العموم أنا أعتمد عليك، إبذل مزيداً من الجهد يا بيومي وعمولتك كما اتفقنا، عشرون في المائة ،همتك يا بيومي.

ـزعق على رجب هل كنسوا السلالم ومسحو البلاط يا رجب؟

ـس تى ـد رجب بعض أوراق النقد، حيي ويمضى الى سيارته الواقفة أمام باب العمارة الكبيرة

يحدث هذا كل يوم ،حتي الكلمات أبداً لا تتغير . ويزعم بيومي أن هذا كان يحدث كل يوم مع البيه الاب ، بل ويشتط فى زعمه ان والده هو قد حكي له أن هذا ما كان يحدث مع سعادة البيه الجد وبنفس الطريقة.

يعرف سكان المدينة . لا سكان الكفر وحدهم ،حكاية عمارة «البيه» ويعرفون أنها معروضة للبيع بأقل من نصف تكلفتها منذ عشرات السنين ولا من مشتري ، ومن يشتري عمارة ينسال من صنابيرها إذا ما فتحتها بدلا من الماء دم، نعم ، تلك حقيقة يؤكدها الكثيرون ولا يستطيع حتى بيومي السمسار أن ينفيها لزبائنه المشترين إذا ما واجهوه بها.

يقولون: العمارة مسكونة بالعفاريت الذين لايحبون أن يشاركهم فى مسكنهم أحد. فلجأوا الى هذه الحيلة ليفزعوا كل من يفكر فى السكن.

بل ويقولون: اتفق العفاريت والبيه الجد أن يترك لهم المبنى لقاء مبلغ كبير من المال يجده تحت وسادته أول كل شهر ، وأن البيه الأب والبيه الحالي ظلا يحصلان على إيجار المبنى من العفاريت بنفس الطريقة ، فيرد عليهم: كيف يعرض البيه مبناه للبيع وهو مؤجر ، ولمن ؟ للعفاريت ، هل يجسر أحد أن يقف فى وجه العفاريت؟.

يقول بعض العقلاء : إن ما ينسال من الصنابير ليس دماً وإنما هو ماء مختلط بصدأ المواسير الحديدية ، فيقول جمعه :لقد اشتركت بنفسي مع عمال المقاول الذين غيروا جميع مواسير المياه فى المبنى أكثر من مرة وبلا جدوى ، فقد ظل الدم- دم حقيقي- ينسال من الصنابير.

وبين أوراق البيه القديمة والحديثة أكثر من تقرير معملي يؤكد أن السائل المأخوذ من صنابير المياه فى المبنى عبارة عن دم، دم بشري.

***

عن رجب عن أبى رجب عن جد رجب أنه حكى:

منذ سنين بعيدة ورث البيه الجد عن أبيه قطعة أرض واسعة تقع فى زمام كفرنا. نصحه بعض «البهوات» أن يبيعها ويشترى بدلا منها قطعة أرض فى أحد الأحياء الجديدة الراقية فى المدينة، لأنها إقامة فى مثل هذا الكفر لا تتلاءم مع مركزه كضابط كبير فى الجيش، ولكن لما كانت الأرض فى كفرنا - فى ذلك الوقت - تكاد تكون بلا ثمن، ولما أوهمه بعضهم أن هناك خطة لهدم بيوت الكفر الطينية وإقامة مساكن حديثة مكانها وأنه لن يمر وقت طويل ليصبح الكفر أرقى أحياء المدينة - لذا قرر «البيه» أن يبدأ البناء على أرضه.

عند اليوم الأول أصبح المكان وحدة عسكرية صغيرة. فى الصباح الباكر تقف إحدى سيارات النقل العسكرية الضخمة محملة بالجنود ومعدات البناء بجوار المقهى المواجه لقطعة الأرض تفرغ حمولتها وتمضى لتعود بعد قليل محملة بمواد البناء. فى الظهيرة يتوقف الجنود عن العمل لتناول الغذاء عندما يلمحون عربة النقل قادمة تحمل لهم «التعيين» يحتسون الشاى فى المقهى، ثم يعودون للعمل، ساعتها يكون البيه قد وصل، يتفقد سير العمل، يربت على كتف هذا، ويزعق فى ذاك، ثم يمضى إلى المقهى، يرقبهم فى جلسته وهو يشرب قهوته السادة، وقد يزعق فى أحدهم من مكانه شاتماً إذا مالمح منه تقاعسا أو إهمالا. عند الغروب تحملهم عربة النقل عدا اثنين منهم ليقوما بالحراسة.

استمر العمل فى العمارة الضخمة شهوراً طويلة، إلى أن اكتملت زينة للناظرين، وقبل أن يتخذ البيه قراره: هل يؤجر أم يبيع شققها تمليكا، حدث ما أجل اتخاذه للقرار، أعلنت حالة الطوارئ فى الجيش، وبدأت الحرب.

**

فى الصحراء بان المستور، وانكشف الجبان والمغرور، وحصدت طائرات العدو - المرسوم عليها ذبابة بأجنحة ستة - برصاصها وقنابلها فلول الجند المتراجعين يجرون أحذيتهم الثقيلة فوق رمال وصخور.

بين مرتفعين وقف البيه بين جنوده

*

وضباطه الصغار يعطيهم تعليماته الأخيرة . بينما صوت احدهم فى العربية« الجيب» الواقفة فى الجوار يحثه على الاسراع . كان الكثيرون مستلقين هنا وهناك يئنون ، وبعضهم يحاول ان يضمد جراحه بقطع من سترته أو بنطاله . وبينما يرفع البيه يده لهم قائلا «الشدة يا رجال ، سوف أترك..» سمع ما يشبه العواء« لو سمحت سيادتك . خذنى معك سيادتك » كان عطوة ينزف منذ ساعات ولم تفلح ضماداته البدائية فى وقف سيل الدم على حبات الرمال تحته.

اشار البيه لاحد ضباطه الصغار : «اعتن به يا وجيه . مع السلامة يا رجال ، العزم والشدة يا أبطال» . سمعه وهو يركب الجيب يصرخ . «اننى أموت سيادتك ، خذنى معك سيادتك» . لكن الجيب كانت تنهب الرمل بعيدا عن عطوة والدماء وطائرات ترش الموت .كان دم عطوة ما زال نازفا . سال الدم. جرى. جرى ليلحق بالجيب الجنونية المسرعة والتى مضت تنهب الرمل ثم الاسفلت وما زال دم عطوة يلهث وراءها . لم يكن هناك خشية من أن يتوه الدم. فهو يعرف إلى أين تمضى السيارة فى النهاية، وصلت السيارة هناك وأنزلت البيه ثم مضت فى طريقها .

كان الدم يتسلق مواسير المياه إلى فوق ، وعندما خلع البيه ملابسه ، ومضى إلى الحمام لينفض عن جسده وعثاء حرب لم يخضها ، عالج صنبور الدش، فغطاه شلال من الدم.

١٩٨٧

حلم وسكين

بينهما صمت ينتظر. كانت فى ثوبها المنزلى المعتاد ، ثوبها الفستقى بورود خضراء صغيرة وياقة مطرزة، لما رفع رأسه ناحيتها التفتت إليه بجزء من رأسها و حملقت فى شفتيه كأنما تنتظر أن يبدأ الحديث ، أطرق برأسه ثانية ،لاحظ قدميها الدقيقتين فى خفيها الأزرقين المتقاطعى السيور بينما يسمع صوتها الواثق كاسرا زجاج الصمت الهش سائلة عن حاله.

-الحمد لله، وصفوا لى أدوية كثيرة ، يقولون إما الغسيل أو زراعة الكلى أو انتظار نهايتى ، لعن الله المرض، منذ شهر واحد ، لم تريني ، كنت شابا يغلق بقبضته الحجر.

رفع راسه قليلا ، قليلا إلى الدرجة التى لا نصطدم نظرته بوجهها ، هو دائما حريص على هذا ، إذا ما التقيا وجها لوجه فإنه يركز نظرته فى عينيها وكأنه لا يرى جانب وجهها المشوه بدءاً من جانب الأذن حتى أسفل الذقن .حملق فى الورود الخضراء الصغيرة ، لاحظ لم تكن ورودا بل فراشات خضراء صغيرة.

-نعم لعن الله المرض والحرائق ، أنا أيضا منذ شهر واحد كنت أجمل بنت فى شارعنا .لقد رأيت الصور بنفسك ، كنت جميلة ..هه؟

صحيح؟

كنا جالسين فى الصالة التى ينتهى إليها ممر العنابر متواجهين على الكراسى الخشبية المكسوة بقماش القطيفة التى بهت لونها وخسفت وسائدها.

-أ. نعم ، طبعا جميلة جدا . هل تعرفين كم تكلف عملية الغسيل شهريا ؟ ضعف مرتبى تقريبا ، أما شراء الكلى لزراعتها ، ها ، طبعا حلم ، بل ابعد من الحلم بكثير.

لم يكن صوتها إلا ما يشبه الهمس،ولا يخدش السكون الجاثم فى مثل هذا الوقت من الليل الا السعال متقطع أو آهة لمريض تأتى من العنابر القريبة من الصالة ،وخشخشة حذاء الممرضة التى تمر بجوارهما بين الحين والآخر وعلى شفتيها ابتسامة خبيثة.

-يقولون أن عمليات التجميل وخصوصا فى الخارج تصنع من البومة ملكة جمال بشرط أن تكون هذه البومة غنية لتدفع تكلفة هذه العمليات الباهظة ، مكتوب على ألا أحلم بما تحلم به البنات جميعهن ، أظل عمرى عانساً ، وحدى، أنا ووجهى المشوه.

رأى كفها تمسح صفحة وجهها فقال «إنها تبكى» وقال «يجب أن أواسيها ،ها، ومن يواسينى أنا؟».

-يا بنت الحلال ، على الأقل سيكون لك عمر لتعيشيه ،وجدك غير وحدى ،المهم أن تعيشيه ،الدور الباقى على ، أيام أو شهور ثم..

ضوء النيون الباهت يرزخ فوق عيونها كقمر حزين ، حملق فى الفراشات الخضراء وفكر «يجب أن يتكلم، ها هى تمنحه الفرصة» .كانت الممرضة قد وقفت غير

سعيدة وقد شرعت أذنيها . ولكنه عزم على أن يتكلم . عدل ياقة سترته الرياضية.

- لم أجد شخصا يبيعني كلية بالتقسيط على ثلاثين سنة هي هي . تصوري إنني صورت نتائج تحاليلك الموجودة هنا في المستشفى وقارنتها بتحاليلي . تطابق تام في مؤعة الـ . تصوري ! تطابق تام ، فكرت أنه يمكن . يعني

حملقت في وجهه وقد اتسعت عيناها ،

هل فهمت ؟ لا ؟

- سأضرب إذن أكثر

- بصراحة . فكرت أننا يمكن أنا وأنت ، معي . بصراحة ، أنت لا تبقين بلا زواج ، وأنا من الممكن أن أعيش ، ما رأيك ، هه ، ما رأيك ؟

حملقت في وجهه طويلا وطويلا ، وفجأة ومض في عينيها بريق حاد وعلى شفتيها المشوهتين ما يشبه البسمة.

للنرجس أن يزهو

في الفرجة بين الليل والليل أسعى بلا ملامح تقريبا . لكن حين يصير الليل لي أتذكر هويتي ، أضم بين أصابعي قلما وبين جوانحي ألما ، أشخبط في أوراقي :نرجس ، روح ، حزن ، فلوس ، آلهة » .أمي تصيح من الصالة« تعالى لنشرب الشاي » ، أمي تصيح من الصالة « ليس لك في الطيب نصيب ، بنت السمرى لن تجد خيرا منها » ، أرشف شايها لا أقول إنها أول من نصحتني بالانفصال لأنها سمراء « وأنت أسمر ، إن شاء الله ستلد أطفالا ترمونهم في الزبالة » ؛ ذلك لأن أمي تمقت البنات القبيحات وتكره البنات ذوات الجمال الوسط ولا تحب البنات الجميلات . أرشف الشاي بسرعة قبل أن يصل حديثها كالمعتاد إلى مصروف البيت فتنصب لي مشنقة المسئوليات المنزلية . هواء الشارع يحررني لدقائق ، ولما أصيح « كل هذا الليل لي » أستريح قليلا ولكنني بعدها أعرف أن سلامة النفس تحتاج لموهبة تنقصني ، لاشئ لي ، ولم يعد هناك ما يبهج الروح: إنهار عالم الأحلام ونبيلة سافرت . وقدماي لما سرت قادتاني إلى الكرسي الخشبي الصغير في دكان صاحبي الذي يبيع المسامير (ربما كان من نوع الأيديولوجست الذين لا أحبهم لكن فيه

شيئا مختلفا) . شربنا شاياً ودخناً وتكلمت كثيرا عن نرجس ونبيلة والحزن والفلوس والآلهة . وتكلم هو قليلا جدا . قال « كن عمليا » . فتركته لأنى لا أستطيع أن أكون عمليا ولا أيديولوجيست . شارع المستشفى يضرب فى بطن المدينة طويلا وحزينا وبلا نهاية واضحة . وكان البقال على ناصية شارع البحرى يسند رأسه على كفيه منصتا باهتمام لصوت الراديو المرتفع جدا . باغته : « علبة سجائر لو سمحت . ما أخبار البوسنة ؟ » .

–اولاد الكلب يذبحون الـ...

–اقول . هل هناك أخبار عن « نبيلة » فى نشرة الليلة ؟

–من نبيلة ؟

–نبيلة بنت السمرى . السن سبعة وعشرون عاما . عيون واسعة عميقة الحزن . البشرة سمراء . علامتها المميزة أنها أكثر من فهمنى . محل الاقامة الدائم بيت فقير فى عزبة البهتينى . محل الاقامة الحالى بيت غير فقير فى الخليج . آ . ربما سمعت أخبارها من إذاعات الخليج . هات لنا محطة خليجية لنسمع أخبارها.

تمعن بعينيه الكابيتين فى وجهى.

–هل أنت سكران يا أستاذ ؟

–مالك أنت إن كنت سكران أو مسطولا . هات السجائر . أنت حمار . تعرف أخبار البوسنة ولا تعرف حتى من تكون نبيلة.

كل ما أطلبه الآن مكان مريح للحزن . هل أذهب لصاحبى فى الغرفة العلوية أشرب شايه الثقيل المحلى بملعقة لى وملعقة له من مرارة هذا العالم ؟ ربما يسمع الآن نجاة و « شباك الأمل وفتحته » ويسخر فى داخله ممرورا . سوف أعطيه – راضيا تماما – سيجارة كل عشر دقائق كما يحب دائما من علبتى البكر على أن يقول لى « هل للنرجس أن يزهو وهو وحده بين الخزامى والبانسيه ؟ » . سرت أحملق فى وجوه القلائل العائدين الآن إلى بيوتهم عجالى : ناس يحملون على أكتافهم أحزاننا وآلهة وأفراحا وأشواقنا لا معنى لها . وأنا . أنا وحدى أعرف أن للنرجس حقا فى أن يزهو وهو وحده بين الورد البلدى والخزامى والبانسيه . وأنه لاداعى أبداً أن أفقد أكثر من نصف سجائرى.

١٩٩٢

تاتا

على مناضد قسمي الشرطة في كل من حي الافراح وحي الزرزور تتراكم الأوراق الكثيرة التي تحوي بلاغات عديدة عن حوادث السطو على البيوت والمحال في الحيين الراقيين. في الوقت الذي لم تسجل في دفاتر شرطة «كفر حرب» منذ زمن بعيد حادثة واحدة من هذا النوع. رغم أن المسافة بين الكفر وذلكما الحيين لاتزيد عن نصف الكيلومتر.

قد يهز البعض اكتافهم ويبتسمون بسخرية العارفين «هل يوجد في كفر حرب بيت واحد يستأهل السرقة؟ تلك البيوت الواطئة بما تحتويه من رث الاثاث وقديم الاواني لماذا يفكر لص اي لص في ان يملأ قدميه بطين شوارع الكفر من اجل ان يدخل واحدا منها؟. ولكن هؤلاء ينسون او يجهلون ان كثيرين من أهالي الكفر من عمال البناء وأهل الحرف- في ذلك الزمن القديم-قد جلبوا من بلاد النفط التي عملوا فيها سنين ما يسيل له لعاب لصوص هذه الايام من تلفزيونات ملونة ومسجلات وخلاطات ما زال بعضها صالحاً للعمل.

فإذا ما مثل أهالي الأحياء الأخرى يمكن لاحدهم أن يقول بحكمة: «البغي لا تمارس البغاء في حيها، واللص لا يسرق جيرانه»، أما ظرفاء الكفر فيقولون أن السبب ببساطة أن أهل الكفر ينامون نصف نوم، إما بسبب البراغيث التي ترعى في فراشهم أو بسبب «المعسل» الذي قطع أنفاسهم ووهبهم نغمة «السعال» طوال الليل موهمين اللصوص-عن غير قصد- أنهم متيقظون.

عم «عطا» يزعم أنه منذ حادثة «تاتا» لم يجرؤ لص على دخول الكفر، كيف يدخله وكلاب الحراسة تملأ الشوارع طوال الليل؟. ويقولون «يا عم عطا، صائد الكلاب لم يترك كلبا في الشارع، فأين هي كلابك هذه؟»، يقول «موجودة، ولكنكم لا ترونها».

في يوم ما قرأ شباب الكفر المتعلمون في جريدة المدينة الأسبوعية في باب «جريدتنا منذ سنين» ما جعلهم يهرعون إلى عم عطا معتذرين له راجين أن يحكي لهم حكاية «تاتا» هذه، وقرأوا له ما كتبته الجريدة:

«حرص كاتبنا الكبير الاستاذ «موسى على» دائما على متابعة ما يحدث في مدينتنا الصغيرة بقلمه الجرئ. وهاك ما كتبه منذ سنين في العمود الذي ظل يكتبه لقرون عديدة (إنهم الحاقدون الذين يدمرون كل جميل تقع عيونهم عليه ،إنهم المخربون الذين يهدفون إلى تقويض دعائم السلام في مجتمعنا الآمن ،وإني لأتساءل: هل لاسم ذلك المكان الذي ارتكبت فيه تلك الجريمة البشعة- كفر حرب -تأثير على سكانه؟ ولكنى أزعم أن لا ،فالذين فعلوا ما فعلوه قلة. شرذمة من العابثين -أهل كفر حرب الطيبون المسالمون منهم براء- إنهم مرضى بالحقد الأعمى الذى صور لهم أن ما فعلوه بالبريئة «تاتا» هو الانتقام الواجب لضياعهم وفشلهم في الحياة ،ستبقى «تاتا» دائما رمزا لضحايا العنف العابث والحقد المدمر. فلنبك «تاتا» ولكن علينا أولا أن نقضى على كارهى الحياة لتبقى الحياة»).

«تعرفون معرض الموبيليات الصغير على ناصية شارع الديرى- معرض البركة - في ذلك الزمان لم يكن سوى بيت صغير كبيتنا هذا، إلى أن جاء الحاج» عبد الغني» فاشترى البيت وهدمه وأقام على أرضه مشروعه ،قالوا أن شركة كبيرة- يظهر أصحابها في شاشات التلفزيون مع المسئولين الكبار وهم يبتسمون ويمشطون لحاهم بأصابعهم-قد اختاروه ليكون وكيلا لهم يبيع منتجات شركتهم في مدينتنا هذه. ولا يعرف أحد لماذا أختار حينا مكانا لمشروعه .المهم أن الرجل- بعد أن ظل شهرين كاملين يتابع العمال وهو يمشط لحيته بأصابعه اكتمل البناء وجهز ، قرر الحاج أن يدعو وجوه المدينة وكبارها من مسئولين وتجار لافتتاح مشروعه ليمنحوه «البركة» ويضعوها إسماله، وقد بلغت به اريحيته يومها أن سمح لنساء سافرات بحضور الاحتفال.

كان المسئول الأول آخر من وصل من المدعوين ،وقفت سيارته الفارهة على الطريق الرئيسى الذى ما زال اسفلته طريا ،وتقدم الحاج عبد الغنى بنفسه ليفتح باب السيارة ، غير أن عشرات من الحلل الفاخرة كانت قد سبقته إلى هناك. نزل المسئول مادا يده إلى الأيادى الكثيرة التى كانت في

استقباله. ثم تحرك جمع الرجال في اتجاه الميني الغارق في الأضواء والأصوات وباقات الورود. ليفسحوا المجال لتتقدم بعض الفساتين اللامعة إلى باب السيارة المفتوح مستقبلين زوجة المسئول التي سبقتها ابتسامتها إلى الباب، وقدمت يديها وخديها إلى جمع النسوة ينهشنها ترحابا وحبا. أشارت السيدة تاتا، الكلبة الجميلة إلى السائق فهرع إليها. وبعد أن أومأت برأسها إلى ناحية السيارة، أدخل السائق نصف جسده الأعلى في السيارة وأخرجه بعد برهة حاملا بين إناث جنسها، شعر ناعم أبيض يتجمع في خصلات طويلة لتغطي كل جسمها إلى ما فوق عينيها الصغيرتين الوادعتين ورأس رشيق، وحركة دانية طرية. اقتربت من زوجة المسئول سيدة طويلة القامة -يبدو أنها من المقربات إليها لأنها أسرت في أذنها شيئا، ويبدو أنها نصحتها بأن تترك «تاتا» في السيارة، لأن البعض قد سمع السيدة تقول بصوت خافت حاد» أتركها؟ أبدا. تحركت وتحرك معها الموكب ناحية البوابة الحديدية، وقبل أن يصلن إليها تقدم الحاج عبد الغني إليهن مرحبا غاضا لبصره، وإن استرق نظرة كانت كافية ليرتسم على وجهه الوقور هلع كبير، توقفت السيدة وقد اتسعت عيناها تساؤلا، لكن السيدة الطويلة التي فهمت الموقف بسرعة هرعت إليها وهمست «إنها تاتا»، لم أقل لك؟، قال الحاج وهو يحاول أن يخفي غضبه «عفوا يا أختنا المكرمة، لا تدخل البركة مكانا تدخله الكلاب، لو سمحت لنا بأن نريحك من عملك قليلا وأشار إلى صبي أسمر اللون -يبدو أنه من عماله- وبعد أن أومأ إليه الحاج ناحية «تاتا» تلقف من يدي السيدة كلبتها الرقيقة وأودعها ما بين ذراعيه النحيلتين ومضى إلى ركن بجوار الباب، حدث كل هذا بسرعة، وفي غمرة الضوضاء والهرج الذي كان يعم المكان لم يلحظ إلا القليلون ما حدث.

ماجرى بعد ذلك، لا يعرف أحد على وجه اليقين كيف جرى، الذي يعرفه الكثيرون أن الحاج عبد الغني بعد شهر واحد من افتتاحه لمشروعه قد ألغاه وأقفل مكانه ووهبه لابن من أبنائه الذي باعه بثمن كبير لتاجر الأثاث الذي فضل أن يحتفظ

باسم المكان ،وفعل أحفاده إلى يومنا هذا. ويبدو أن الحاج قد تشاءم من المكان وسكانه فحول نشاطه إلى« حي الورود » . لكن الذى عرفه سكان الكفر انه فى ليلة الافتتاح الزاهرة اختفت « تاتا » ، فبعد أن طاف المدعوون والمدعوات بالمكان وشربوا كاسات العصير من انتاج الشركة الكبرى وباركوا المكان باسم هدايا الحاج وأياديه قبيل الافتتاح وأثناءه ،وما بين الابتسامات وكلمات الوداع اتجهوا إلى سياراتهم المنتظرة على الشارع فى طابور طويل- وقفت السيدة على الباب قليلا تنادى على الصبى لكى يهرع إليها بكلبتها المحبوبة، ولما أجيبت إنه تأخر قليلا رمت بنظراتها إلى حيث كان يقف ، لم تجده هناك، جالت ببصرها فى أنحاء المكان ،وغاص قلبها عندما لمحته بيدين خاليتين ، زائغ النظرات يتلفت هنا وهناك بين الأرجل المتزاحمة.

وأمام الضابط اعترف الصبى-الذى أتهم صراحة باختطاف « تاتا » -أنه قد سمح للكلبة الصغيرة أن تترك يديه لتتمتع بالقفز على المناضد والكراسى القريبة من المدخل ،لأنها كانت تتململ بل وعوت بصوتها الرقيق دلالة على ضجرها وهى حبيسة أحضانه،لكنه أقسم أنه حاول أقصى ما يستطيع أن يكون قريبا منها لكيلا تغيب عن ناظريه ، لكنه بعد اللحظة التى تقدم فيها ليحظى بكوب من أكواب العصير الموضوعة على« صينية » قريبة التفت ناحيتها ،لكنها لم تكن هناك، بحث فى كل شبر فى المكان بل وفى الشارع ،ولكن« تاتا » العزيزة كانت قد اختفت تماما.

انتشر المخبرون ورجال الحاج عبد الغنى فى أنحاء الكفر ، فقد حملت السيدة الحاج المسئولية الكاملة لضياع محبوبتها تاتا بتصرفه العجيب فى ليلة افتتاحه المشئومة. .وأقسم الحاج بالإيمان المغلظة انه لن يبقى فى الكفر يوما واحدا إذا لم ترجع تاتا لصاحبتها. وانطلق رجاله يبينون لأهل الكفر أن ذلك معناه أن يغلق الحاج مشروعه وتضيع على بعض أهل الكفر فرص العمل التى يوفرها وجوده- وهو الذى يدفع رواتب عماله بالعملات الصعبة- وعليه فإن على خاطف تاتا- إذا كان يراعى مصلحة أهله- أن يعيدها، لكن دعاباتهم لم تسفر عن ظهور المختفية ،ويقال أن البعض

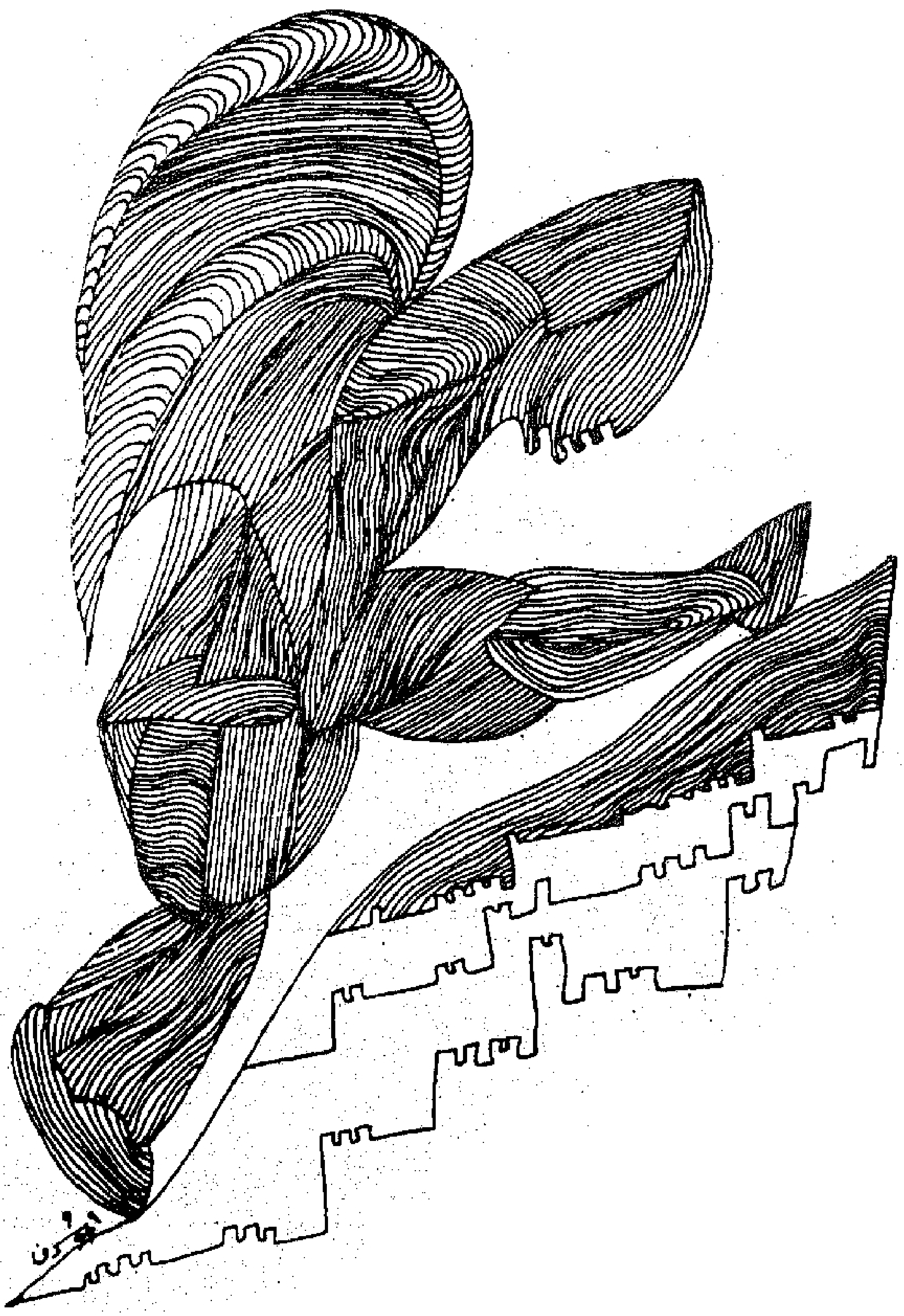

قد تعرض للتهديد بأساليب مختلفة، ولما لم يفلح كل هذا أعلنت السيدة عن مكافأة لمن يدل على مكان تاتا أو يدلي بمعلومات تفيد في العثور عليها.

في منتصف الليلة السابعة، اتصل المخبر «سعد عبد البصير» بالضابط النوبنجي مبلغا إياه أنه في أثناء تجواله الليلي المعتاد في أنحاء الكفر وجد أمام البوابة الحديدية لمعرض البركة-الكلبة تاتا جثة هامدة.

يقولون يا أولادي، وصدقوا أولا تصدقوا أنه في هذه الليلة وقبيل منتصف الليل بقليل، بعد أن استغرق أهل الكفر في نومهم بساعات كان مجموعة من شباب الكفر عائدين إلى بيوتهم من أحد احتفالات الزفاف، محاولين أن يتزنوا في مشيتهم بغير ضوضاء، بعد أن أدارت البيرة -التي لاتتوفر لهم الفرصة إلا نادراً ليعبوا منها- رؤوسهم الغليظة. بالقرب من معرض البركة لمحوها هناك، وفي وقت واحد هتفوا «الكلبة». لم يفكر أحدهم لحظة واحدة في المكافأة المرصودة ولا في التهديدات اليومية التي ملئت أسماعهم، كانت تتهادى هناك ميادة متباهنية، رقيقة مثيرة كأنما اجتمعت رؤوسهم في رأس واحد، تبادلوا النظرات، ثم تحركوا في إتجاه واحد، أحاطوا بالكلبة الصغيرة حتى لم يبق لها إلا أن تتراجع إلى بوابة المعرض الحديدية. كان الذعر يبرز من عينيها الصغيرتين وهي تزمجر بصوت كالمواء متراجعة إلى حيث لا تدري، إلى أن التصقت بالبوابة وهي ترتعش، لم يبق بينهم وبينها سوى خطوات قليلة، وقد تركزت عيونهم عليها، وفجأة انتفضوا جميعا في لحظة واحدة، وتحول الفتيان السمر العريضو الأكتاف إلى مجموعة من الكلاب الضخمة حادي الأنياب، منتصبي الذكورة.

١٩٨٧

ندى

يمكن للقادم من ناحية مخزن غزيات الجاز- مخترقاً شارع الحساني أن يرى «الحنفية» قبل أن يصل إلى تقاطع الشارع مع الشارع الرئيسي، بل يمكنه -إذا ما أغفل النظر إلى الحفر الكثيرة الموحلة تحت أقدامه، أو الحملقة في وجوه العجائز

والنسوة الجالسات على أبواب البيوت الواطئة- يمكنه ان يرى خط المياه الرفيع المنساب من فتحتها الواسعة على القاعدة الاسمنتية التى تحيط بها فوق أرض رصيف ضاعت معالمه.

كانت حنفية «ندى» هى الحنفية العمومية الوحيدة فى «كفر جرب» التى تحمل اسما خاصا بها. والعارفون ببواطن الامور العقارية يقدمون تفسيرهم للاسم بان الارض التى تتربع على جزء منها الحنفية . كانت فى زمن بعيد ملكاً لامرأة تدعى« ندى»

لكن الكثيرين يسخرون من هذا التفسير ، مستبعدين لتقديم حججهم فى أن «ندى» ذلك الاسم الارستقراطى لم يعرف طريقه إلى إسماع الناس فى هذه المدينة الصغيرة إلا عن طريق التلفزيون الذى لم يكمل إرساله العقد الثالث، يرجعون التسمية لما بين « الندى » والماء من علاقة لغوية.

وأم« خليل » تمصمص بشفتيها ازدراء لكل ما يقال من خزعبلات الشباب وتحكى لاحفادها الحقيقة:

! كان ياما كان يا سعد يا إكرام ،بنت جميلة ولا كل البنات «كفر جرب» بل كانت تسكن نفس شارعنا« الحسانى ».. وكانت البنت« ندى » تحب.. شابا ولا كل الشباب ، تقول له «أحلم بنا تحت سقف واحد» ويقول «أبنيه بيدى هاتين طوبة طوبة ، ولكن للأرض ثمناً وللطوب ثمناً ، والأيدى قصيرة.. وأنت تعرفين البئر وغطاه »تقول «إلى متى» ويصمت..

جاءها يوما وفى وجهه فرحة «ندى يا حبيبتى ،فرجت،اليد القصيرة ستطول وستمتلئ بالنقود والذهب ،وقعت اليوم عقد العمل.. بعد أسبوع سأسافر إلى بلاد فيها الفلوس أكوام على أكوام ،وأجرة «النقاش» هناك عالية ، قاطعته ملتاعة «تسافر.. وتتركنى» ضحك«أتركك» ولماذا أسافر إذن؟ سأتيك بأكوام الفلوس لنبنى بيتنا ..ما رأيك فى هذه الأرض التى تقف عليها الآن؟ ما رأيك ..هه؟ سأبنى لك البيت هنا ..فى نفس هذا المكان » وسافر الفتى

وانتظرت البنت شهوراً ،سنة.. سنتين .. ثلاثة ،وفى عصر كل يوم كانت تمر بقطعة

الأرض الفضاء ..أرضهما، تتنهد وتتخيل بيتا صغيرا ككل بيوت «كفر حرب» الواطئة . يكفي أن يجمعهما ،وأن ينطلق من بابه أطفالهما يعبثون بطين الكفر وترابه ويعودون في المساء ليتلقوا العقاب والحنان من يديه القويتين.

في يوم من أيام الصيف الثالث.. عاد الغائب . سمعت أباها يحكي لأمها عن الحقائب الضخمة الممتلئة التي اعتلت ظهر« البيجو » الذي سد الحارة.. وأن الولد قد أصبح «نظيفا» نظافة لم يتعودها أهل«كفر حرب» و«كثر الله خيره ..لم ينسنا..أهداني طاقية مزركشة» تخيلت البنت فساتينها الحمراء والصفراء التي وعدها بها الفتى والتي لاشك أنها تملأ نصف الحقائب الضخمة.

وانتظرت البنت يوما.. يومين .. ثلاثة ..كلما طرق الباب تخيلته والجا يحمل كومة من أكوام الفلوس ويلقيها بين يدي والدها « هاك ..مهر الغالية» ..ولم يأت. ..في اليوم الرابع حكى أبوها أن الفتى قد طلب منه أن يبحث له عن شقة خالية في حي «الأفراح» -حيث يعمل أبوها في مقهى هناك- لأنه ينوي الزواج.

بعد أسبوع ..رأته في الشارع.. بدا أكثر طولا وامتلأ جسمه المحشور في بنطاله الجنز وقميصه الحريري-هتفت وهو يمد لها يدأ امتلأت أصابعها بالخواتم الذهبية الضخمة «أهلا يا ندى ..كيف حالك» ..كانت رغبتها في أن تضمه عنيفة، لكن شيئا ما في وجهه الغائب قد منعها حتى من مجرد الرد، واكتفت بالبحث بعينيها عن عينيه لتجد الإجابة عن سؤال لم يخرجه فمها «لماذا لم تأت» لكنها لم تستطع أن تجد عينيه ...وبابتسامة وادعة سأل «ندى.. ألم تتزوجي بعد؟».

قالها بنزق .. وفهمت . جرجرت قدميها ..وهناك ..في أرضهما الفضاء ..حيث سيكون بيت لم تسكن فيه ،ولن يضمها مع حبيبها العائد.. جلست على حجر ،وظلت تبكي ،من مغيب الشمس وهي تبكي ودموعها تنسال خيوطا رفيعة على وجهها ساقطة على أرضهما- الحلم.

وفي الصباح ..لم يجدوها هناك.. وجدوا في نفس مكان الحجر الذي كانت تجلس عليه- الحنفية ..حنفية ندى.. ..والماء ينسال

منها خيوطا رفيعة ساقطا على الأرض.

مش عارف

كتروا الأعداء .ومشيت فى الشارع سارح افكر فيهم. وبافكر فى الأصحاب ، واستغربت لأنى بقيت باتلخبط بينهم يظهر إنى اتجننت . معقولة ماتقدرش تفرق بين صاحب وعدو لمجرد توحيد الزى فى داخل كل الناس بأوامر عليا من الأقمار الصناعية و«الكورن فليكس» ؟ماشى على المهل .وهاستعجل ليه؟ ع البيت ؟هتلاقى ولادك منتظرين «الشيبسى» فى إيدك ورجال الكرتون الفضائيين فى الشاشة بيحطوا الإنغام السرية على ورق الورد النابت فى قلوبهم .ومراتك بتعد النقدية وبتحسب فاضل كام ع القسط الشهرى لجهاز التوليف مع صوت الموجة الرمادية السايدة فى كل بيوت العالم ، واللى اشتريناه من شهرين مع سجادة. هتروح القهوة؟ محمود هيقول لك كالعادة إن الحكام أولاد زانية .وإن الكورة هدف مضبوط مش «أوفسايد» وياخدنى أصلى سعاد ورا زهر الطاولة صلاة الحظ ، تغسل دماغتنا القواشيط السحرية من كل همومنا الآلية فى ساعتين .هتروح على فين ؟ على «صالح» علشان يحكيلك آخر أخباره الجنسية ويحاول اقناعك إن حلول الأزمات الكبرى تلاقيها بين الفخدين لكن على شرط التغيير الدائم ، وان العلاقات الدولية -ليست إلا- علاقات جنسية بين الدول الرجالة والدول النتيان والدول المخصية غصباً أو بخواطر حكامها اللى بيخبوا أغصان الزيتون -فى إيديهم أو فى مناطق أخرى أكتر من أولادهم .وحريمهم! هتقول لى نروح الندوة ، تسمع عن أزمة إنسان العصر المرسومة فى قصايد بالشطة وحكاوى «بالمايونيز» على كرسى فى آخر الصالة . أستنى حبالهم توصل لى ، وأدور على خيرتى فى كوم التراكيب اللغوية ، ألاقيهم بيدقوا الأجراس الخرسانة بهمه ع الناصية التانية من شرايين القلب والفشل الكلوى لأحلامنا .وإلا تروح عند« خليفة» فى دكانه يثبت إنك فاشل حيث إنك مش عملى ولا تعرف إن الفرعون المرسوم ع الورقة الحمراء بقى يحكم فى رقاب الخلق- حقيقى -بعد ما حطوه ع العملة. هتروح على فين ؟ ولمين. والأعداء واقفين لك على

ناحسب كل حوارى العالم. كل عقول الناس وحلوقهم؟ تفضل رجليك واخداك فى الطرق المزحومة بوشوش مطلية بخرابيش الافراح الفالصو، وشفايف بتغنى حسب الكتالوج المرفق- للطاعة الأبدية بالخد الايسر والايمن والخلفي كمان، تاخدك رجليك ع البوابة تلاقيهم قاعدين بيلاعبوا الشمس الحامية على دماغهم كلمات متقاطعة ماتتغيرش الغيش والهدمة والكيف وعيال فى الحارة بترعى مشتنية الستر وحتة لحمة راس، مرصوصة جنبهم ع التلتوار، وعينيهم على علم الرزق. فقلى واحد من زمن البورصة وهز الوسط مسكتك متلبس. إنت الحالم بالفكر الغابر اصحى. كل التظريات انهارت ولا باقى غير وجه السوق الحرة والراية البيضا المغروسة فى قلوب الخلق، مملكة الفقراء الموعودة ماهيش موجودة، دمرها الفرسان الطالعين على غفلة من رمل الزمن الساكت، لابسين «الجينز» الأصلى، على روسهم طبق «الستلايت» ممسوك بعقال، ولأنك فقرى، وملكش تصيب فى بخور الشهد الأبيض والخمرة السيالة من نهر الميسيسبى المبروك، فانزاح م السكة وموت.. أحسن لك» فكرت: «ماأظنش إنى لوحدى فى هذا العالم «فقرى» ومريض بالحلم الأهبل زى ما بيقولوا، لكن كتروا الأعداء، حسب اللستة الموجودة فى جيبى من مدة، كتروا الأعداء، وهاشوف، طلعت الورقة الدهبانة من الجيب، كانت أسماء الأعداء فى الورقة زنبان على ناحية والناحية التانية أسامى الشهدا والأصحاب، طليت فى الورقة لقيت الأسماء سايحين على بعض، مين.. ومنين؟ ماعرفتش، فقعدت على التلتوار وسألت الجتت البلهتانة فى جارى: يا ترى ياخواننا لو متنا فى اللحظاى هنزعل؟!.

جرشكل

طالبان مصر

ح . س

تحطيم جماعة «طالبان» الحاكمة في أفغانستان لتماثيل بوذا الأثرية هو ذروة من ذرى ذلك الفهم الضيق للدين الإسلامي ،وهو النتيجة المنتظرة لتفشي «ذهنية التحريم» عند قطاعات كبيرة من متطرفي «الحالة الإسلامية» في العالم كله بعامة ،وفي العالم العربي بخاصة.

والواقع أن التعجب قد اعتراني ،إبان اندلاع هذه المشكلة في الفترة الأخيرة، أكثر من مرة:

فمرة حين فوجئ الجميع بفعلة طالبان المذهلة مع أن الفهم المتسق كان ينبغي أن يدلنا على أن فعلة شنعاء كهذه لابد واقعة ،بالنظر إلى تتبع منطق طالبان المظلم: بدءا من إجبار الرجال على جعل لحاهم طويلة، مروراً بمنع النساء من الخروج للعمل أو التعليم ،وانتهاء بتحريم السينما والمسرح التلفزيون.

ومرة ثانية حين انتفضت «الليبرالية المتوحشة» في الدول الغربية للدفاع عن« التراث الإنساني» ضد «بربرية المسلمين» في أفغانستان ،انطلاقا من أن هذه «الليبرالية المتوحشة». هي حامية حمى المدنية والحرية والحضارة، مع أن هؤلاء الحماة الحضاريين لم يحركوا ساكناً إزاء محاولات الحفر تحت المسجد الأقصى بالقدس، ولا إزاء هدم الآثار البابلية والأشورية في العراق بطائرات «الاستنارة» الغربية ،ولا إزاء المقتلة الجماعية التي خاضها الأفغانيون أنفسهم بين بعضهم البعض بعد خروج

السوفييت ، ولا إزاء الأطفال الذين تسحقهم دبابات «شعب الله المختار » كل صباح في فلسطين.

وصف البعض التناقض في سلوك هذه الليبرالية المتوحشة بأنه « الكيل بمكيالين » وهو تفسير غير صحيح .والصحيح أن أقطاب العولمة يكيلون بمكيال واحد وحيد هو مكيال " المصلحة" ، ،مصلحتهم في التدخل والسيطرة والفرض .

ومرة ثالثة حين سارعت بعض المؤسسات الإسلامية العربية ،إلى إرسال وفود رفيعة للمشاركة في مساعي إثناء طالبان عن الإقدام على الفعلة الشنعاء .ووجه العجب هنا يتجلى في أمرين:

الأول: هو أن هذه الوفود الإسلامية الرسمية لم تفلح في إقناع طالبان بالعدول عن فعلتها الشنعاء ،وسبب ذلك عندي أن هذه الوفود الإسلامية الرسمية العربية تنطلق هي الأخرى من نفس الأرضية السلفية المتزمتة التي تنطلق منها طالبان .وفي حين استنكر مفكرون إسلاميون غير رسميين(مثل جمال البنا وفهمي هويدي وسليم العوا) فعلة طالبان استنكاراً سافراً أخرج الفعلة عن السلوك الإسلامي الرشيد ،فإن الوفود الرسمية لم تجد سوى الدفع بأن الوقت غير ملائم لمثل هذه الفعلة ،مما يعني بجلاء الاتفاق على مبدأ التحطيم ،والاختلاف على توقيته!.

الثاني: هو أن هذه الوفود الإسلامية الرسمية التي سعت للتدخل لدى جماعة طالبان الأفغانية ،تتغاضى عن- بل وتسهم في- تحريمات سلفية عديدة في مجتمعاتنا العربية ، تتبنى منهج طالبان نفسه:

فهناك تحريم «الموديل» في كليات الفنون الجميلة بمصر، وفتاوى تأثيم الغناء والموسيقى والتمثيل ومنع عرض فيلم «الرسالة» لمصطفى العقاد بمصر. ورفض الأزهر عرض مسرحية «الحسين ثائراً وشهيداً» لعبد الرحمن الشرقاوي ،مرتين : مرة في السبعينيات مع كرم مطاوع ،ومرة منذ أيام مع جلال الشرقاوي .وتعديل كلمة «أحمق الخطى» بكلمة «واثق الخطى» في أغنية عبد الحليم حافظ التي يقول فيها «قدر أحمق الخطى، سحقت هامتي خطاه». ومحاكمة الشاعر الأردني إبراهيم نصر الله بسبب عنوان ديوان «بسم الأب والأم».

أما أبرز واقعة طالبانية في قلب المجتمعات العربية فهي« حادثة الأقصر الشهيرة»

فى مصر، منذ أعوام .فلم يفتح المتطرفون نيران رشاشاتهم على السياح الأجانب فقط ، بل فتحوها-قبل ذلك وبعده -علي جدران معبد حتشبسوت المليئة بالصور والرسوم التى اعتبرها «الطالبان المصريون» أصناماً مساخيط ،ينبغى إبادتها من الوجود.

يقول أدونيس :« تبعاً لمنطق طالبان ، ينتظر أن تهدم التماثيل الأخرى ،تماثيل المخيّلة والفكر ، تلك التى تصنع بروح اللغة العربية ،وبخاصة تماثيل الشعر ،فالإنسان ،بحسب هذا المنطق، يحاكى فى تماثيله اللغوية « خلق الله » اللغوى كما يحاكى فى تماثيله المادية «خلقه» «المادى».

إن سحب هذا المنطق على استقامته هو ما يحدث بالفعل فى واقعنا العربى،وهو ما يقف وراء تلك السلسلة المتصلة من المصادرات التى شهدتها حياتنا الأدبية والفكرية فى معظم عقود القرن العشرين كله: بدءاً من مصادرة طه حسين وعلى عبد الرازق فى أوائل القرن، مروراً بمصادرة نجيب محفوظ فى أواسطه ،وليس انتهاءً بمصادرة نصر حامد أبو زيد وحيدر حيدر فى أواخره. والمنطق فى كل تلك الحلقات المتتابعة هو - بتعبير أدونيس-هدم تماثيل المخيلة والفكر، حيث « لابد ، إذن ،من تهديم «أصنام» الشعر والفكر والعلم .إذ كيف يحق لمخلوق أن يحرك شفتيه بكلمات نطق بها خالقه ،وكيف يحق له أن يصنع منها تمثالا- بيانا يحاكى به بيان الخالق؟ ».

وليس من ريب فى أن طالبان الأفغانية قد واجهت الوفود الإسلامية العربية الرسمية بقائمة من الفتاوى التحريمية التى أصدرتها هذه الوفود الرسمية فى بلادها العربية ،مما ينبع من نفس المنهج الطالبانى ويتوحد به،ولذا كان موقف الوفود ضعيفاً ،وموقف طالبان قوياً ،فكأن لسان حال طالبان يقول لفقهاء العرب:«كيف تطلبون منا أن نعدل عما تفتون بمثله فى بلادكم العربية ».؟

والواقع أن وجود ذلك «الحبل السرى» بين طالبان الأفغانية وطالبان المصرية ليس بالأمر المستغرب، إذا نظرنا إلى العلاقة بين الجماعات الإسلامية المتطرفة فى مصر والفرق الإسلامية الأفغانية ،أثناء مقاومة هذه الأخيرة للوجود السوفيتى فى أفغانستان ،حيث تشكلت أفواج الجهاد المتطوعة للحرب فى أفغانستان ،وحيث التدريب على السلاح ، ثم عودة هذه الأفواج إلى مصر لينشأ فى وصفها تعبير «الإسلام الأفغانى فى مصر ».

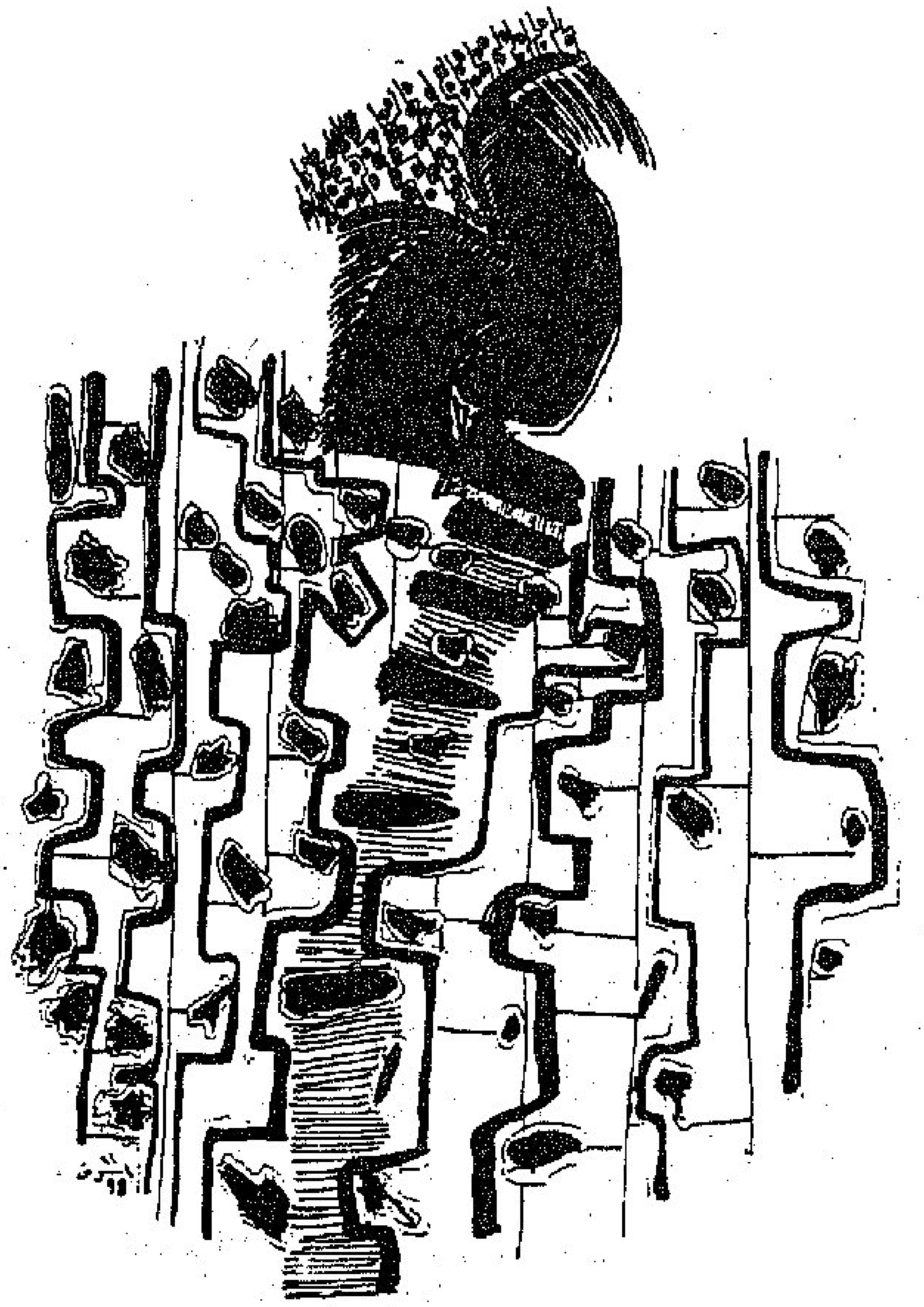

وعلى ذلك ،فإن جملة أدونيس المركزة « بشر ، إما أنهم سيوف ، وإما أنهم جثث ».ليست فحسب وصفا لوضع أفغانستان حيث الناس جلادون أو ضحايا ،ولا ثالث ، بل هي كذلك وصف لوضع مصر ومعظم البلاد العربية ،حيث الناس صنفان :مندوب إله أو إمكانية قتيل ،ولا ثالث.

أما المواطنون العرب فقد كانوا ينظرون إلى الوفود الإسلامية الرسمية العربية ومهمتها « التنويرية » في أفغانستان ،وهم تارة يقولون « فاقد الشئ لا يعطيه »، وتارة يقولون:« من كان منكم بلا ذهنية تحريم فليرم طالبان بحجر ».

مقال

صورة الفنان

ماجد يوسف

تنتشر عند معظم الناس ، صورة للفنان أو الشاعر أو المبدع بشكل عام تتصوره على أنه شخص بوهيمي ، متحلل من جميع الروابط الاجتماعية ، يحيا بطريقة شاذة وغريبة(تكاد تكون مريبة) ،لا شأن له بما تعارف عليه الناس من تقاليد وقيم وأعراف ، ولا علاقة له بما تواضعوا عليه من أخلاق وسلوك ..قليل العناية بهندامه ، ربما ، شارد الذهن عادة ، زائغ النظرات في الغالب ، جائع للشهوات بأنواعها دائما، يسخر باستمرار من كل ما تعود الناس على احترامه وتوقيره ،مستهتر -في العادة- بمنظومة (الأخلاق) الشائعة والمحترمة ، لا يقيم اعتباراً لأية قيمة من أي نوع ، خصوصا إذا تعارضت هذه القيم مع لذائذه وشهواته ورغائبه ومصالحه المباشرة.. إلى آخر معالم هذه الصورة التي قد تختلف في تفاصيلها كثيرا أو قليلا لصالح الفنان أحيانا ، ولغير صالحه في معظم الأحيان ، ولكنها وإن تباينت في تفاصيلها حسب الظروف ،وحسب موقع مكون الصورة ووعيه وبيئته ورؤيته وثقافته ..إلخ، لكي مما لاشك فيه أن ثمة إجماعا على النظر إلى الفنان أو المبدع باعتباره شخصا خارجا عن المألوف ,ومختلفا ..وفي هذه الحدود، فلا مشاحة ولا خلاف على أن الفنان أو المبدع أو الشاعر يختلف عن الإنسان العادي بدون شك ، ولكنه ليس خلاف الانحطاط والتدني والتحلل ،مع تسليمي بأن قطاعا كبيراً من المبدعين يتصورون المسألة على هذا (النحو) ..وإنما الخلاف الأصيل للفنان أو المبدع عن الإنسان العادي- في تصوري طبعا- هو في حدة بصيرته ،ونفاذ وعيه،وحساسية نظرته، وموهبته في القراءة الفنية الخاصة والمتميزة لواقعه ،القراءة

المبدعة لهذا الواقع ،وقدرته على أن يقبض على جوهر لحظته التاريخية /الاجتماعية /السياسية .. إلخ قبضا فنيا باهرا ،مؤثرا ،ومحركا ،ومغيرا ، ودافعا، اختلاف الفنان ، إذن ،يتبدى -عندى-فى قدرته الفذة على ملامسة عالم الروح ، التى أشار الله إلى أنها سر خفى ملغز لا يدرك كنهه ، بل إنه -الله- احتفظ بحقيقة هذا السر لنفسه «ويسألونك عن الروح ..قل الروح من أمر ربى» ..الفنان أو المبدع أو الشاعر ،هو الوحيد القادر على الاقتراب من هذا السر ..لحد ما ،وهو بعمله الفنى الرفيع يستجلى بعض غوامضه ،ويلقى بضوء ما على بعض خوافيه وأسراره ..ومن هنا تأثرنا -كمتلقين -بالفن والشعر والإبداع ..فهذه الكيانات الجمالية- فى أعلى ذرا تحققها اللافت- لا تقدم لنا أية فائدة عملية من أى نوع .. فلا تزيد أموالنا مثلا ، ولا تملأ بطوننا بلذيذ الطعام وشهى الشراب، ولا ترضى غرائزنا المعروفة ، كلها أو بعضها ..غريزة الامتلاك.. أو الشهوة الجنسية ..ولا تشفينا من مرض السكر أو أوجاع الكبد أو الكلى أو أى مرض عضوى آخر.. ولكنها برغم ذلك قادرة على تحقيق سعادة غامرة وعميقة.. لأنها تتعامل فورا مع جوهرنا الإنسانى العميق ،ويعقد الصلة المباشرة والكهربية مع حقيقتنا البشرية الأرفع ،لأنها تقترب -مباشرة- من هذه المنطقة الربانية التى خص بها الله نفسه ..وهى منطقة الروح، فى هذه اللحظة ..لحظة الفن ..لحظة الإبداع ..يشارك الفنان الحق.. الله ، فى جزء من السر ،تقترب اقترابا ما من هذه المنطقة المحظورة ، أو المخفورة بالأسرار ، والمترعة بالأنوار ، ولذلك ،ففى كل عمل فنى حقيقى .. صوفية ما.. صلة ما تنعقد بهذه المنطقة التى كأنها تنتمى إلى تلك اللحظات الأزلية المبهمة السابقة على خلق الإنسان ، أو تلك اللحظات الأبدية الملغزة الأخرى الباقية من بعده .. تلك اللحظات الميتافيزيقية التى لم يشهدها الإنسان ، ولكنها مركوزة فى دماه، وفى ذاكرته اللاشعورية ، أو فى وعيه الباطن ، أولاوعيه الكامن ..وما الفن الحق ، إلا اقتراب بمعنى من المعانى من هذا السر، من بهاء هذه اللحظة ، وكنهها المستعصى المحوط بالغموض ، ولأن ذلك كذلك، يكاد يكون الفن الحق ،والشعر الحق، هو ذلك الذى يسربله قدر من الغموض والخفاء وعدم الاتضاح الكامل ، هو ذلك الذى يسامت الروح فى إشراقاتها الخفية ، وضبابها الشفيف ،واتضاحها البهى فى ملكوت الملغز الغامض المكتون على شفا صراط -كحد سكين -مرهف ومشرع بين العقل والجنون!!.

على أى حال ، وحتى (لا ننجذب) فى حالة تبعدنا عن موضوعنا ..فلعل ما سلف حتى الآن يضعنا إزاء المهمة المستحيلة- والثقيلة -للفنان والشاعر الحق، والتى تشبه- من نواح عدة- ثقل النبوة، ووطأة الرسالة ، وإرهاق الوحى .. ومن ثم، فالفنان أو المبدع -

فى هذا السياق -يمتلك عبء الأمانة ومسئولية الكهانة ،كما قال شاعرنا الراحل على قنديل.. وامتيازه هو فى هذا الاستبصار المرهق الذى يحتمله عن طيب خاطر خدمة لناسه وشعبه ..كأن المبدع هو (زرقاء يمامة) أمته بمعنى من المعانى ، هو قادر على أن يستخلص الجوهر ، ويستصفى اللب، ويستقطر الكنه المكنون ، ويقارب السر المخزون ، ويشارف الروح على شفا الكاف والنون!

أما تلك الصورة الكاريكاتورية ، المشار إلى بعض ملامحها فى أول هذا المقال للفنان أو الشاعر أو المبدع ، فهى صورة مزيفة ومدعاة ومزورة للفنان الحق، أو الشاعر الصدق ، صورة يحلو للبعض أن يتمثلها لكى يحصل-مخادعا وكاذبا -على لقب الفنان،وعلى وصف المبدع ،وما أكثر المزيفين والكذابين والأدعياء والشعارير!.

المهم.. أننى لا أتصور -جوهريا- فنانا لا خلاق له، أو مبدعا منحلا، أو شاعراً فاسد القيم .. صحيح أن مثل هؤلاء تعج بهم الحياة ، ويملأون الواقع ، ولكنهم لا يتطابقون تمام التطابق-أو أى تطابق إن شئت الدقة- مع الفنان الحق، والشاعر الصدق ،والمبدع الأصيل..ففى كل تاريخ الفن والشعر والإبداع ..هناك الأنصاف والأرباع ،ومن ليس لهم من الصفة إلاها ،ومن اللقب سواه .. إلا الاسم والنعت أقصد ..(شاعر) ،(فنان) ،(مبدع) بلا جوهر حقيقى ،أو حقيقة جوهرية ،لهذه المسميات!.

وفى بداية حياتى الأدبية والشعرية ،كنت أشعر بانبهار كبير تجاه كاتب يكبرنى ، أقرأ له كل حرف يكتبه ، وأبحث عن قصصه فى كل مجلة أو جريدة ، وأتلقف كتبه الأولى بسعادة وحب غامر، إلى أن أسعدنى الحظ بلقائه ،والتعرف إليه ، ولا تسل عن سعادتى ،وقد اصطحبته إلى بيتى ليلتها ،لنقضى الليلة معا فى أحاديث طلية وتقارعات نقدية، ، أقرأ له شعرى ،ويقرأ لى قصصه ، وبشكل عابر ، سألنى عن بعض الأعداد بالذات من مجلات أدبية متعددة: هل هى عندك؟.. وأجبته تلقائيا وصادقا بالإيجاب ..فطلب منى إحضارها ،فقمت لمكتبتى ألملم له ما أراد من اليمين والشمال ،ومن أعلى الرفوف هنا ، وأسفلها هناك حتى جمعت له ما أراد ..فأخبرنى ..أن هذه المجلات احتوت فى بعض أعدادها تلك على قصص له ، وأنه بسبيله لإعداد مجموعته الجديدة من هذه القصص المنشورة ،فى هذه المجلات ..وإلى هنا لم يكن ثمة ما يريب، أو يدعو للشك .. وأكمل أنه فى حاجة إلى مراجعتها والاطلاع عليها لأنه ليست لديه كل هذه الأعداد وأنه سيكمل الليلة فى هذه المراجعة والفحص ، وقمت للنوم وأخبرته أننى مضطر للخروج فى الصباح مبكرا جدا لوداع أبى الذى كان سيسافر -فجرا -إلى السعودية، وأن كل ما عليه فى الصباح بعد أن ينهض وقتما يشاء ويقرر الانصراف، أن يعنى بالتأكد من إغلاق الباب خلفه ليس إلا..

وحتى لا أطيل عليكم فى تفاصيل غير مهمة..

المهم .. أنه عند عودتى .. اكتشفت تمزيق الأستاذ الفنان المبدع الساحر المبهر لكل قصصه من مجلاتى المختلفة وإفسادها جميعا على .. وأنه أخذ عددا من الكتب أيضا من مكتبتى دون استئذانى .. ودون أن يعلمنى حتى بما أخذ فى ورقة استعارة أو ما شابه .. ولا تسل عن فجيعتى الباكرة فى هذا التصرف (اللا أخلاقى) ..وتحطم صورة هذا الفنان الكبير (الذى ما زلت على قناعتى بأنه فنان كبير) وقلت لنفسى مشمئزا من سلوكه ساعتها ..إذا كان لابد أن أعرفه أصلا فليكن ذلك من بعيد لبعيد .. بمعنى أن أقرأ له فقط .. دون التورط فى الدخول معه فى علاقات مباشرة ..قد تفجعنى بما تكشف عنه من تناقض فادح بين الصورة المثالية للفنان أو المبدع و الشاعر التى تفترضها القراءة المجردة. ..وبين ما قد يعتور الشخصية الحقيقية من عيوب ومثالب أخلاقية رهيبة أحيانا .ولذلك ،فأنا أميل- بطبعى -إلى الإيمان الكامل (وإن كذبته الوقائع أحيانا وصدقته فى معظم الأحيان) أن الفنان الكبير ، والمبدع العظيم ،والشاعر الفذ.. هو حالة من الاتساق بين القول والفعل ، بين القناعة والسلوك، بين الفكر والعمل ..بين قيم الإبداع كما تلوح فى عمله ،وقيم الحياة كما تلوح فى علاقاته وحركته بين الناس ..وأن الخلل بين المستويين بدرجة أو بأخرى لا يدل على مجرد عيب فى شخيته ..وإنما على نقيصة فى إبداعه!.

ولكن، إذا كان لابد أن أسلم فى نهاية هذا المقال ،بأننى لا أمتلك منطقا قويا فى الدفاع عن هذه الفكرة ..لأن تاريخ الأدب والفن والإبداع يمتلئ بالمنحطين والسفلة.. بل والمجرمين أحيانا ..وهم مبدعون أفذاذ فى الوقت نفسه! وهذه حقيقة لا أستطيع إنكارها والمماراة فيها للأسف الشديد ..ومع تسليمنا الكامل بنسبية المعايير الأخلاقية من مجتمع لمجتمع ،ومن عصر لعصر.. فلأقل بكل تواضع إذن .. إننى أنا شخصيا ، لا أفهم - ولا أحب أن أتعامل مع فنان عظيم هو فى الوقت نفسه إنسان منحط ،وقد أفضل -إذا كان لابد من ذلك أصلا- التعامل مع فنان متواضع القيمة، ولكنه إنسان عظيم حقا!!.

كتـــاب

كتاب عز الدين نجيب :

شــهداء يرســمون شــهداء

محمد سيد سلطان

لايعد هذا الكتاب مجرد كتاب يستعرض فيه مؤلفه أعمال نخبة من أهم فنانى مصر التشكيليين فى العصر الحديث ، بل هو فى الحقيقة شهادة موثقة يبين فيها حياة هؤلاء الفنانين الكبار الإنسانية ، فى قوتهم وضعفهم ، فى حبهم وكرههم ، فى مرضهم ونزواتهم وإحباطاتهم .. والأهم من ذلك رصده لما ناله هؤلاء الفنانون من جزاء على يد المسئولين عن الثقافة فى بلادنا ، فالغريب فى هذا الكتاب هو أنك ما إن تقرأه حتى ينتابك شعور عميق بالفخر للانتماء لهذا الوطن الذى أنجب هؤلاء الفنانين العظام ، ولكن سرعان مايذوى هذا الشعور تحت وطأة شعور أكثر عمقاً ، وهو شعور بالخجل والخذلان لما لقيه هؤلاء الفنانون من إهمال من قبل السادة المسئولين عن الثقافة فى بلادنا فى حياتهم وبعد مماتهم..

والمفارقة الهائلة فى هذا الكتاب - كما يقول الشاعر حلمى سالم فى كلمته على الغلاف الخلفى - هى أن كاتبه - عز الدين نجيب - هو نفسه واحد من أبرز الفنانين الشهداء : فمرة يعتقل بسبب نشاطه التقدمى ، ومرة يعتقل بسبب تضامنه مع الثورة الطلابية فى أوائل السبعينات ، ومرة يعتقل بسبب تضامنه مع الفلاحين

الثائرين على قانون الإيجارات ، وبين هذه الاعتقالات هناك سلسلة متواصلة من فصله وإبعاده وتحطيم لوحاته ومرسمه .. ولكل هذا لم يكن غريباً أن يحمل الكتاب كل هذا الحب والدفء تجاه فناني مصر الكبار..

ورغم أن الكاتب قد قسم كتابه إلى خمسة فصول استعرض خلالها حياة إحدى وثلاثين شخصية إلا أننا نستطيع أن نقسم الكتاب تقسيماً مغايراً. فالكاتب قد عالج في كتابه نوعين من الشخصيات : النوع الأول نوع كان ملء السمع والبصر في حياتنا الثقافية ، مثل حسن فؤاد وصبرى كامل وسيف وأدهم وانلى وإنجى أفلاطون وعفت ناجى وتحية حليم ولكن يبقى السؤال المهم الذى طرحه الكاتب عند عرضه لحياة هؤلاء الفنانين ، ماهو التقدير الذى نالوه؟

والنوع الثانى هم من عانوا عذابات كبيرة ورغم ذلك لايعرف عنهم الكثير ، رغم إنهم فى حقيقة الأمر لايقلون عن فنانى النوع الأول الذين ذكرناهم ومنهم نحميا سعد ، محمد شفيق ، صدقى الجباخنجى ، حسن محمد حسن ، محمود عفيفى..

يفتتح الكاتب فصول كتابه بأول المعلمين وأول الشهداء ، ألا وهو أحمد صبرى .. والذى يعده المعلم الأول لأجيال الفنانين فى مصر منذ أوائل الثلاثينيات فلقد تخرجت على يديه من المدرسة العليا للفنون الجميلة أجيال وأجيال تركت بصمات قوية على مسار الحركة الفنية ، متشبعة بتعاليمه الصارمة أو مضيفة إليها قيما جديدة أو حتى متمردة عليها، وفى ذلك كان تأكيد لوجوده وتأثيره ، فلو كان بغير تأثير ماأستحق التمرد عليه من أبنائه .. ومن بين تلاميذه النابهين على نفس الدرب الأكاديمى الفنان حسين بيكار والفنان صلاح طاهر فى مرحلته الأولى .. وكان من قوة تأثير ورسوخ هذا الاتجاه الأكاديمى الذى أصبح أهم مدرسة فى الحركة الفنية حتى نهاية الثلاثينات ، أن قامت للتصدى لها ودفعها جماعة فنية جديدة من شباب الفنانين عام ١٩٣٩ باسم « جماعة الفن والحرية » بقيادة رمسيس يونان وفؤاد كامل ، وكامل التلمسانى .. أما حياة هذا الفنان الكبير من يوم مولده فى أبريل ١٨٨٩ وحتى وفاته فى مارس ١٩٥٥ فهى مسلسل تراجيدى ، بل أقرب إلى الميلودراما فمن موت والدته وهو فى الثانية من عمره وموت والده وهو فى الثامنة إلى انتقاله

إلى بيت خاله وتذوقه مرارة العيش والحرمان وما لاقاه من إذلال .. ثم التحاقه بعد ذلك بمدرسة الفنون الجميلة بدرب الجماميز التى أعلنت عن افتتاح أبوابها سنة ١٩٠٨ ثم سفره إلى فرنسا بعد ذلك فى بعثة فنية فور انتهاء دراسته .. لانجد غير مأساة كبرى لاحقت هذا الفنان الكبير صاحبته منذ ولادته وعبر حياته ، والتى انتهت نهاية مأساوية ، ففى عام ١٩٤٩ سلب منه القدر نور عينيه وهو فى ذروة النضج والعطاء الفنى ، واحتاج إلى جراحة فى عينيه . ولم يكن معه مايغطى نفقاتها ونظم له بعض محبى الخير معرضاً للوحاته ، حيث بيعت فيه سبع عشرة لوحة بمبلغ أربعمائة جنيه(!!) وأجريت العملية بالفعل ولكنها لم تأت بنتيجة وهكذا عاش سنواته الأخيرة لايستطيع أن يرسم أو يوفى نفقات أسرته الكبيرة . وكان أقسى يوم على نفسه يوم تلقى – خلال هذه الأزمة – دعوة من الدكتور طه حسين وهو وزير للمعارف لرسم صورة شخصية له وعجز عن تلبيتها ..

ولاتختلف حياة صبرى فى تفاصيلها عن حياة باقى فنانينا وكأنه بدون ألم ومعاناة لايكون هناك إبداع ، وأقول فى تفاصيلها لأن هناك الكثير من الفنانين من سعوا منذ بداية حياتهم إلى الدراسة الأكاديمية ثم محاولة السفر إلى الخارج وخصوصاً فرنسا لكى يستكملوا دراساتهم هناك.. كما أن هناك الكثير منهم من عانى منذ نشأته وحتى وفاته مر المعاناة فى حياته والإهمال من قبل الدولة ومنهم حسن خليفة ..

وحسن خليفة هو الطالب الوحيد الذى التحق بكلية الفنون الجميلة بتأشيرة من الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً ، بعد أن رفضت كلية الفنون الجميلة قبوله طالباً بها ، فلم يكن فى وسعه سوى تقديم شكوى إلى مكتب الشكاوى ، وهو مملوء يقيناً بأن شكوته هذه سينظر إليها ولكن المفاجأة كانت أكبر مما توقع فقد استدعته الكلية لتبلغه بقبوله بناء على توجيهات الرئيس ، ولم يصدق أو يهدأ له جنان حتى قرأ بنفسه تأشيرة الرئيس على طلبه ، وكان نصها :" إذا لم يقبل حسن خليفه فى كلية الفنون فلمن أعدت إذن ؟ .. ولم ينس حسن خليفة هذا المعروف ففى عام ١٩٧١

قام حسن خليفة بنحت تمثال بارتفاع أربعة أمتار فى الساحة الرئيسية لجامعة بيروت العربية بلبنان .. وهو العمل الذى سبب له فيما بعد آلاماً مبرحة - بسبب وقوفه الطويل فوق السلم - فى عموده الفقرى .. وبعدها فى عام ١٩٧٦ يذهب حسن خليفة إلى فرنسا فيقضى بها سبع سنوات يدرس فيها فن الميدالية - نال حسن خليفه جوائز عديدة عبر حياته الفنية ففى عام ١٩٧٧ حصل على جائزة البورتريه " لبول ماير" بفرنسا كما فاز بالميدالية البرونزية فى النحت الميدانى عن تمثال « اللحن الحزين » من صالون باريس الدولى عام ١٩٨٠. كما نال أيضاً الميدالية الفضية فى النحت عن تمثاله « عذاب الإنسان » من صالون باريس الدولى عام ١٩٨١ وغيرها..

ولم تختلف معاناة النساء عن الرجال فى حياتنا الفنية فما لاقاه الرجال من معاناة وإهمال لاقته أيضاً النساء ولكن إضافة إلى المصير الذى اجتمعت عليه أغلب فناناتنا وهو الوحدة القاسية ، بعد أن تساقطت - مع رياح الخريف - أوراقهن ورقة ورقة ، فتكالبت عليهن قسوة الوحدة مع مرارة النسيان! .. ولكن تبقى إنجى أفلاطون هى التى تعرضت لتجربة السجن دون غيرها من الفنانات ، فلقد قبض عليها فى عام ١٩٥٩ فى أكبر حملة اعتقالات سياسية تشهدها مصر ، لتقضى فى السجن خمس سنوات . والمفارقة أنه فى اليوم التالى للقبض عليها دق جرس الباب فى منزلها ، وكان القادم مندوباً من وزارة الثقافة بخطاب تهنئة بحصولها على الجائزة الأولى فى مسابقة التصوير الزيتى التى أقيمت بين كبار الفنانين عن العمل فى الحقل . ومن حياة الترف إلى عذابات السجن قضت إنجى أفلاطون خمس سنوات ولكنها تقبلت الأمر بعزيمة خارقة ورفضت أية مساومات للتخلى عن مبادئها واستنكار مواقفها السياسية مقابل الإفراج عنها ، فاستغرقت فى رسم المسجونات بعد أن أكتشفت أنهن لسن شريرات بطبعهن ، بل كثيراً ماوجدت أعماقهن أنقى من كثيرات ممن يعشن حياة الترف فى المجتمع ، وأنهن ضحايا القهر والظلم الاجتماعى .. وهكذا استغرقت فى رسمهن أو بمعنى أشمل .. فى رسم

الحيوات المكبوتة الزاخرة بالمعاناة والقلق والخطيئة والخوف والمجهول والتمرد القهر والشهوات المحرمة التى تلتهب ناراً لدى أدنى لمسة ، ترسم الأشواق العاطفية والأمومة الحبيسة والأيام المتساقطة مع الآمال فى بطء كظلام النهار وساعات الانتظار اللانهائية التى تعيشها السجينات ، أو خطوط الزمن على وجوههن التى توشك أن تفقد أدميتها.

وفى ١٧ أبريل ١٩٨٩ وبفارق يوم واحد عن يوم ميلادها وهو ١٦ أبريل ١٩٢٤ رحلت انجى أفلاطون عن عالمنا ، بعد أن أصيبت فجأة بجلطة لم تمهلها غير أيام قليلة ، بعد رحلة فنية تجاوزت ألف عمل فنى مابين لوحة زيتية ومائية ورسوم بالفحم والأحبار..

وأخيراً فالكتاب قصيدة وفاء شجية من فنان ذاق مرارة المعاناة والقهر يقدمها تحية وإخلاصاً لمن سبقوه على الدرب من فنانينا وفناناتنا ليسد بها فراغاً كبيراً فى مكتبتنا الفنية وليدشن به لبنة من اللبنات التى تربط بين الفن والفنانين وحقوق الانسان.

قصـــة

متـــوازيـــان

إيهاب الحضرى

(١)

هناك على بعد مترين كانت تجلس على حافة سرير فخم ، شاردة تحملق فى أفق غير منظور ، وعلى نفس المسافة منها كنت أجلس بدورى على حافة سرير فخم شاردة - رغما عنى - أحملق فى نفس الأفق غير المنظور ، فجأة .. قررت أن تخلع ملابسها رغم برودة الجو لتقف عارية تماما، ولأن هناك قواعد للعلاقة بيننا لايمكن الخروج عليها فقد اضطررت لأن أخلع ملابسى رغم شعورى بالبرد لأقف عارية تماما على أمل أن تتخذ قرارا مضادا يقينى هذه البرودة ، غير أن الحمقاء وقفت تحملق فى اتجاهى وهى تفكر فى أمر لاأستطيع أن أتبين ملامحه، وكما تحملق فى أحملق فيها ليتكرس بداخلى شعور بالخواء ، هى غبية تضايقنى ومع ذلك تقودنى باستمرار فى نفس الاتجاه.

(٢)

عندما وقف خلفها مقبلا عنقها كانت تبدو متوهجة ، تنم كل إيماءاتها عن نشوة محمومة ، وأنا - كما هى العادة - صورة مطيعة لايمكنها الخروج على النسق ، تغمض .. أغمض.. تباعد بين شفتيها لتصدر أنة ملتهبة .. أباعد بين شفتى لكن

دون أن أصدر صوتا ، تعض .. أعض ، ترتعش.. أرتعش، تسلم جسدها للمساته أسلم جسدى للمسات ـهـ.. أو للمسات شبيهه الذى لايختلف أمره عن أمرى كثيرا ، كل هذا كان يحدث بدقة متقنة على المستوى الشكلى ، لكن تطابق الحركات كان يزيد توتراتى ، فالحمقاء القابعة على سريرها تحت جسد هذا الخنزير تثير اشمئزازى ، كيف يمكن لها أن تتقبل مثل هذا البدن، بل والأغرب أنها تستمتع به ، الاشمئزاز كاد يجعلنى أتقيأ (وهذا لم يحدث طبعا نتيجة المعايير الصارمة التى تحكم تصرفاتى) ، فى هذه الليلة تحديدا بدأت أشعر بالقهر ولم أعد أخشى الظلام ، فهو الذى يحررنى منها حتى ولو بالغاء وجودى.

(٣)

هاهى تعود لارتداء ملابسها .. أشعر بالدفء .. تبدأ فى البكاء بحرقة .. أدمع (مثلها تماما) لكننى أحس بالسعادة حزنها يسبب لى انتعاشا جذلاً .. لابد أنها أصبحت تدرك حقيقة مشاعرى تجاهها ، استشف ذلك من نظراتها الكارهة التى بدأت تحدقنى بها ، حاولت - بدافع من خوفى - أن أظهر لها بعض الود ، لكن نظراتى لم تساعدنى ، وقتها فقط قررت أن أحاول.

(٤)

الجفاء المتنامى أصبح إطارا عاديا لعلاقتنا حتى إنها أصبحت لاتنظر إلى ، قد تقف أمامى لتصلح ثوبها أو زينتها لكن دون أن تلتقى عيوننا ، عرفت أن محاولتى بدأت تثمر ، أفولها أشعرنى بالزهو .. والقوة !

(٥)

سأحاول أن أفرض وجودى حتى فى حالة اختفائها ، أحلام اليقظة بدأت تزين لى المحاولة ، فأخذت استعد لمعجزتى ، إنها أسطورة الخلق قد تتكرر ، الحياة من رحم العدم ، سأكون حواء الصور المسلوبة الإرادة وسأختار آدمى من بين عشرات المحبوسين فى الأطر الزجاجية ، وسأتعرى فقط عندما أرغب فى التعرى ،

وسأختار من يطارحنى الغرام وأغمض عينى وأباعد بين شفتى لأصدر أنة ملتهبة .. لا بل أنات تعوضنى فترة السكون التى سبقت الخلق ، نهضت هى متجهة إلى الباب، ورغما عنى نهضت أنا متجهة إلى الباب ، لكنى أخذت وضع الاستعداد للبقاء لحسن الحظ أننى لاأراها ، استجمعت قواى ، قبل أن تغلق الباب نظرت وراءها .. نظرت ورائى ، لمحت على وجهها طيف ابتسامة متحدية ، فأجبتها بابتسامة متحدية .. أغلقت هى الباب..

(٦)

فشلى قادنى إلى حالة من الإحباط ، سحقنى الاكتئاب ، لحسن حظى كانت هى أيضا تمر بنفس المشاعر، لم أكن مستعدة لأن أراها سعيدة وأنا مكتئبة، حالتها السوداوية جعلتها تفرط فى التدخين الذى أدمنه ، علاقتنا انحدرت إلى أدنى مستوياتها خاصة مع بقائها فى الغرفة لفترات طويلة مما جعلنا فى مواجهة مستمرة ، آخذ نفسا من سيجارتى ، يتصاعد دخان سيجارتها ، ضعفها الشديد جعلنى أستعيد بعض الثقة بنفسى فأقرر أمرا ، إذا كنت قد فشلت فى المرة السابقة فان ذلك حدث بسبب خروجها الذى أخل بمعايير العلاقة بيننا ، أما فى وجودها فالأمر يستحق محاولة أخرى، إن حركة مبادرة قد تعيد تنظيم موازين علاقة التبعية ، فقط سأنتظراللحظة المناسبة.

(٧)

كانت واقفة أمامى تمسك كوبا . كنت واقفة أمامها أمسك كوبا ، رشفت رشفة .. رشفت رشفة ، نظرت إلى بكراهية .. نظرت إليها بكراهية .. انتبهت إلى أننى مازلت أقف عند حدود التكرار السلبى ، فقررت أنها اللحظة المناسبة ، فى انفعالة مفاجئة رفعت يدى بالكوب وألقيته بكل قوتى فى اتجاه وجهها..

فى الوقت الذى كانت أشلائى تتناثر فيه مع زجاج المرآة المحطمة ، كانت هى تهوى على السرير وتجهش بالبكاء !

شعـــر

بهجـــة الألـــوان

محمود الزيات

أمشى كملك شرقى سابق
يتجول فى إيطاليا
منكسر القلب
ولكن المخابرات لن تدبر مؤامرة لقتلى
ولن تستأجر ممثلة مغمورة لتدس لى السم فى شرابى
الأمر الذى يشعرنى بالمزيد من المرارة

لدى أسباب كافية للسكوت
وحيث إن الحياة فى ذات الوقت
وهبت أناساً آخرين
أسباباً كافية للتكلم
وقدرات خسيسة على اقتحام فضائى
أجدنى مضطراً للتكلم
حيث يصبحون فجأة فى مجال الرؤية

يتحركون بنشاط صامت
كمن يجهزون لموتى
سوف أشغلهم عن هذا مؤقتاً
" مؤقتا" هذه أستخدمها بيني وبين نفسي منذ سنوات
ربما " مؤقتا" حقيقة أشد صلابة من " خطة التاريخ"
لم أقابل أحداً يمتلك خريطة معقولة للتاريخ
برحابة مصطنعة سوف أكمل استماعي
الأمر لايعنيني على الإطلاق
حيث لاجدوى من كل هذا
الشك في الجدوى يحمل في طياته مصادرة تقول:
إنه لابد لكل شئ من جدوى
بما يعني أنني أنطوي على تكوين أصولي
مقاومتي الخفية للخواء
تأكل نصف قدرتي على التركيز
أحياناً أتصور أنهم أيضاً في معركة عنيدة
يقابلونني بنصف وعيهم
مما يجعلني أشك في قدراتهم على التفكير
كما أنهم يشكون في قدراتي
الآخرون عامة يتكلمون فيما لايرغبون التكلم فيه
ربما لأن مافي داخلهم حزين أيضاً
ليست هناك طريقة يخرج بها المرء من نفسه
ليرى الأشياء بحياد فيزيائي
ربما كانت الألوان أكثر هدوءاً

والطبيعة ذات تفاصيل أقل
وأصحابى أكثر معقولية
ربما هم حقيقيون.

باعتزاز مأساوى
كما يصف نيتشه انكسو جوراس
أرتدى ملابس بهيجة الألوان
وأمشى فى جنازتى الطويلة متماسكا قدر الاستطاعة
أمشى كملك شرقى سابق يتجول فى إيطاليا.

شعر

الشكوى لله

مدحت منير

هالف الهوى لفتين بالعصايا
وأدبها ف الرمل
يمكن
تصحى الورد

هارفع رجلى اليمين قدام
وأنط بالشمال ف العالى
يمكن
يولف طير

هازق قلبى العجوز
بالراحة..
كإنه النهر..
زاحف ع الحصى بالطحى
وأسيبه
يعوى بكرامه
على طبل شبه الجوع
يمكن
يخف الوجع

نافذة المبدعين

حبى كالقمر

حبى لك كأقمار الليالى
كل يوم هو بحال
هو يوماً فى حبك كالبدرِ
وفى حبك يوماً كالهلال
فلا تشقى نفسك بالسؤالِ
أو يفزعنك تغيير الأحوال
فالقمر يظل قمراً فى كل الأشكال
ولو تحول يوماً من بدرٍ إلى هلالِ

ندى إمام عبد الواحد

جنـــون

يتدحرج حجر من سطح دار القرشى ، تقرع العصى صفيحة ، ينهق حمار ، تشغو الحملان ، ينبح كلب ، يصرخ رضيع ، تخور جاموسة ، تصيح الديوك فى غير ميعاد الصلاة ، تموء قطة ، يزيط العيال :

- بيو ، بيو .

تكر الأصوات وتفر ، العجوز تسوطه النبرات ، يغتاظ ، ينفخ ، ينفر ، يهيل طوب (الجحريدة) على خيالات العيال ، توجعه الصيحات ، يدور حول رسمه ، يستكشف الأبواق المتنمرة ، الأولاد فى مخابئهم يتحفزون، تنقله يثير الزوابع ، رمال وأتربة وسيل من الزلط ، أبرز من شارع النحيفية ، أتلفت خوفاً من الكلاب المسعورة، يلخمني التوجس ، أصطدم بالجسد الصخرى ، يقبض على ياقة قميصى من قفاى ، يرجف قلبى ، ينز جسدى عرقاً ورعباً ، تتسمر عيناى على تجاعيده مسنونة الحواف ، عيناه تطقان شرراً ، أتوسل فى صمت ليدعنى

، تغطى ريالته ذقنه ، يتحشرج صوتى:

- ياعم الحاج أنا..

صفعة قوية تلحد حروفى ، وثانية تهدنى ، وثالثة تطلق رفاتى من يده ،أجرى ، يتقوقع مطرحه ، موجات الأصوات تنرفزه ، يتوعد الجميع بالقتل ، أطوى الأرض ، الأولاد يتضاحكون ، يتعالى صخبهم ، تعرقل قدمى اليسرى اليمنى ، تبطحنى شقفه من الصوان ، تنهضنى سرعة فوق كل السرعات ، ألهث ، تتبدل الأرض ثعباناً مهولاً يبتلع كل الأشياء ، لقفنى أبى أمام الدار ، عقد مابين حاجبيه ، مسح دمائى بتؤده وصرامة ، لم يركلنى بالأسئلة ، طبطب على كتفى الموجوع ، أكتم آلامى ، ينطق:

- من الذى ضربك ؟ ؟

أتذكر البكاء ، يمهلنى فترة ، يخفت نحيبى ، يعاود السؤال:

- من هو الضارب؟ ؟

أرد بحروف موتورة:

- الشيخ سيد.

- وكيف أمسك بك؟ ؟

أصمت ، يتجاهلنى ، أتألم بآهات مكبوتة، يطلب الإجابة تخذلنى الكلمات ، أتشنج ، أتحسس آثار يده الغائرة ، ويحكى وعلامات الأسى والحيرة تتخلل صوته الرخيم:

- أين الشباب كان ، جمالاً وفتوة ، رزقه فى الأسواق ، يمشى معرش ، شال كشمير وجلباب جوخ ، أمل كل بنات القرية ، عايق ودمه خفيف ، لايعود من الأسواق إلا فى أنصاف الليالى ، وفى ليلة شتاء وأثناء مروره على القنطرة لايسمع إلا خرير مياه الزواريق ، ولم ير إلا شقاوة القطط، وقف ، وفجأة تحولت القطة البيضاء إلى عروس جميلة كفلقة القمر ، قبلته قبلة طويلة سلبته العقل.

يضمدنى ، أغادره إلى حيثما أتيت وفى يدى حفنة زلط ، ينده على ، لاأعيره أذنى ، أقابل العجوز ، لاأجرؤ على رميه بالطوب ، أنحرف مبتعداً ، يشده أبى بقوة ، يقعده جواره ، يبادر أبى بالقول:

- أمسكت بشيطان وضربته .

يسأل أبى كاظماً غيظه:

- ماذا فعل لك؟ ؟

ينكمش فى هدومه ، تتعارك الأجوبة فى مخيلته ، يقول بصوت رائق :

- سرق فلوسى وباع أرضى لغريمى

يسخر أبى:

- لايعرفك .

يقضم الكلمات:

- بل تربى فى بيتى ، أذاع جنونى ، سبك الحكايات ونهبنى.

يصر أبى :

- ليس هو.

يدعك جبهته المتسخة ، يقطع بكلماته قرص الصمت:

– بل هم – كلهم – هو

أتلصص محاذياً المصطبة ، يلمحنى ، ينتفض وبيده نصف قالب طوب ، يحول أبى بيننا.

عصام الدين محمد أحمد

قرى العاشقين

غدا يأتى لك العاشقون
لايملكون غير أغنية
وعذابات الطفولة
يشقون القمر
يبنون سلما فى السماء
يؤدى
للاشئ
غير أن العينين
تحكى
مانسيه البشر
وردة العشاق
تحكم فى الدماء
(الأحداق والمهج)
لاتنس قرى العاشقين
أين هى ؟
نؤسسها من جديد
لافائدة
هل جاءك العاشقون البارحة
كانوا ينزفون دماءهم فرحين
قالوا إن عشقت فأنت بالخيار
أن تقتل أو تنتحر
هل رأيت العاشقين البارحة
كانوا يشتاقون للنار كالفراشة
إذ تسعى نحو حتفها
كان البحر
يغنى أغنيته الباكية
عندها
رحل العاشق
لم يكن يرجو
غير ارتعاشة يد
ونظرة حانية
قرى العاشقين
قرى العاشقين
مذبحة

عبد السلام صبحى

أشـــجان

حضرة السيد مدير التحرير

تحية طيبة إلى سيادتكم/ إننى أبعث إليكم بهذه القطعة الزجلية كتبتها حفيدتى شيرين أبو زيد راجح المدرسة المساعدة بقسم الارشاد السياحى فى كلية السياحة والفنادق بجامعة المنيا ، وهى تعبر عن تجربتها الذاتية

ولكم ياسيدى خالص الشكر والاحترام

أشجان محمد كامل

" أشجان

واحكى يا" أشجان "
ده الكلام كتير
فى العينين وعلى اللسان
دى الحلوة " شرين"
قلب أخضر
والصدر دافئ وعمران

آهي قاعدة تدور
مش عارفة لها رأس من رجلين
ولاحلو من شين
وكل ماتنحل عقدة
الثانية تربطلها اثنين

ماهو كان فيه جنية
وساكنة بيتين
جنية مؤذية
لاتعرف رحمة ولالين
وشوف ياصاحبى
راحت قعدت خلف " شرين"
علشان لما تقول شمال
اللئيمة تجرى جهة اليمين
ولما تقول أبيض
صاحبتنا تروح بسرعة قايلة:
لأ.. إسودين!
داخت البنت " شرين"
راحت تقول: ده مين والا فين؟؟
دى أصلها ورا ياحلوة
وهو الأصيل برضه يكلمك من ورا ظهرك؟
والا يقف قصادك والكلام عين فى عين؟

قالت" أشجان":
ده عمل ولا المشعوذين
والسحر ياآبا فى بابل
نادى الملكين
لأ.. ربنا هو خالق الإنس والجان
الرحمن

تعالى ياأميرة الجنيات
كل طلباتك جهزناها
جمر.. وبخور.. وتعويذتين
قالت: لأ.. معوذتين!..

بكيت "شرين"..
أه.. أنا فى متاهة..
إصبرى.. لما يجيكى اليقين
وتعرفى خبره بعد حين
ولكل أجل كتاب
ولكل متاهة باب..

شيرين أبو زيد راجح

ثنائية الحلم والحقيقة

ماأحلى عينيك فى الغناء!
كأحلامى المرسلة

والمدن المقسمة
ترسم بسمة عبر الفضاء
ماأحلى ثغرك الباسم صباحاً
حدثيني عن زمانك ..
وعن شهريار
فكل الزهور تفرقت ..
على خدى (شقائق النعمان)
وانزوت فى جحور الأرض
تبنى فى جسمها .. شوكاً للاشتهاء
ترسل عطرها لمن يفض بكارة
المساء
حدثينى ..
عن صورة الفارس المكبل
- على برواز أحلام الشعوب -
فى جدار القلب الملقى فى الشوارع
للذئاب
يفكر فى فك قيود المعبد
من مخالب الدموع والدماء
فاستهوته صحراء المساء
ماأحلى عينيك فى البكاء !
كل الحروف - كقلبى - ضائعة
- كأنبوبة المصل -
كل أنابيب السموم لاتفيد
لن يجدى الهروب من الزمن
عبر حدود الدود والشجن
وأبواب الرأس حبلى بالسقم
والوطن يحتسى - الشعب -
كؤوس مرارة الانفصام
والألم
وصوت النور المولج فى ضجيج
المدينة
يتوجحد فى قلب الفارس المعلق
على حصان أشواق الصباح
وفى نفس اللوحة
يتفرقون من حوله
كل يحمل أوراقه لحيث شاء
.....
ماأحلى عينيك فى توحد الغناء
والبكاء!

إيهاب العثماني - نجع حمادى

درة الزمان

محمد درة الزمان
ووجهه ساحة الوطن
محمد.... بارق الأمان
ساعة المحن
حاملاً همومنا
رافعا هاماتنا
إن عزا دهر
أو جار زمن
قوله شرر
فعله درر
لكن فعلنا
مثل قولنا
حائر
أو عاقر
بلا ثمر
حجر على حجر

ووجه طفلنا
بسمة الدهر
إن غاب القمر
وروح طفلنا
رد فعل غاضب
قام يقذف الحجر
بوجه غاصب مستكبر
أحرق البشر
والصمت .. والكفن
عالم .. بلاضمير

على عبد الكريم

القدس راجعة

فلسطين ياأرض الديانات
فلسطين ياحبيبة السموات
لن يرضى الإله قهرك
وقتل الأطفال وصراخ الأمهات
يادرة الاسلام والأقباط
يامهد الرسالات والدعوات
لن يفلت أعدائك من جلد السياط
ستهزم الحانات وتنتصر المقدسات
سيجلد الحاخامات
والجنرالات أولاد الضائعات
وتعودى يافلسطين بعد الأنين
لراحة السنين ياأم الطاهرات
ويعود الحجيج إلى قدسك
بعد الحنين والدعاء فى الصلوات
ياقدس ياعبير الريحان
ياغذاء الروح والأميرات
سنعود إلى دفء ربوعك
نصلى ونغنى أعذب الألحان
سنعود ياقدس الزمان
ياقرة الأعين ياأعز البلدان
سنعود ياقدس الأمان
نقبل أرضك والجدران
ياقدس آن الآوان
وارتفع صوت الأذان
الجهاد .. الجهاد .. الجهاد
ياجنود العرب والعربان
فيوم النصر قد حان
واسألوا الأيات فى القرآن
ستعلو المآذن وتدق الأجراس
وتعانق الأهلة الصلبان
وسيكتب المؤرخون
يوم النصر بكل لسان

محمد وديع العلاوى

قريباً .. سأعود إليك

هنالك يمكث الغالى جريحاً
هنالك نلتقى عدلاً غريباً!!
هنالك قد طغى سفه حقير
على الحب الأصيل مضى مريبا

* * *

رمال تشتكى وجعاً مريرا
يدوس صدورها دوما ويمضى
بلا حلم على قلبٍ لثكلى
.. هو الفزع الذى دوى بأرضى
ترى أيسير ذا قدماً يباهى

ترى أيسير مبتسما .. أمامى؟!
فيما ويح الفؤاد وياعذابى
ستقتل كل راياتى .. وسامى !!

* * *

فأين من ارتقول ؟! .. كلا سأمضى
إلى الدرب الطويل هناك قومى
فؤادى قد رأى نوراً مطلاً
ترى أهو الصباح أتى للومى ؟!
نعم .. فأنا .. غفلت وهامصيرى
إلى السحب التى غطت صقورى !!
« صلاح الدين » ذا قلق ثراه
وحطين التى شهدت نسورى

* * *

تنادى اليوم فى هلع : هلموا
فراق قد مضى لكمو ..! وجاءوا
بغلٍّ لطخوا جسدى .. وطفلى
يصارعهم هنا فهمو وباء

زكريا عبد المحسن على

هل يفيد انتحارى ؟

. لاشك فى أن الكتابة تساعد كثيراً على تخفيف التوتر ، وهى عبارة باردة يمكن استبدالها بعبارة أكثر توافقا : الكتابة يمكنها أن تصد فكرة الانتحار: ماذا لو انتحرت احتجاجاً على سلوك القيادات العربية تجاه مايحدث فى فلسطين ؟ المشاهد التى نقلتها وسائل الإعلام لايمكن التعبير عنها بالكلمات : حجر فى مواجهة ترسانة مسلحة ، أطفال وشباب يستشهدون كل يوم، مدن كاملة تحت الحصار ، بيوت تنسفها المروحيات والرشاشات تقذف الموت على أحياء كاملة لاتفرق بعد أيام قلائل من اندلاع أحداث فلسطين راودتنى فكرة الإنتحار إحتجاجاً على برود الأنظمة العربية وردود أفعالها المحبطة والانهزامية. ثم أقلعت عن الفكرة - أملاً أو سذاجة - عندما أعلن عن عقد قمة عربية ، لكن سرعان ماعاودتنى وأنا أستمع محبطاً وحزيناً للبيان الختامى . وقلت انتهزها فرصة فأكتب ورقة أضعها على جثتى قبل أن أموت ، رسالة تقول: انتحرت احتجاجاً على الأنظمة العربية وقمتهم الخائبة.

شرعت فى التفكير من حيث توقفت فى المرة السابقة: هل يفيد انتحارى القضية؟

وبما يدفع نظاماً عربياً - أو نظامين على الأقل - لاتخاذ موقف حقيقى إزاء مايحدث لأهلنا الفلسطينيين . هذا من الناحية العامة ، أما من الناحية الشخصية فان فوائده لاتحصى ، فالانتحار هو السبيل المضمون للراحة من كل أوجاع القلب هذه ، وهو يتيح لى فرصة،ألا أرى بعد ذلك نظاماً عربياً واحداً (اللهم إلا إن كنت من أهل جهنم) . هذا ماكنت أفكر فيه قبل أن يردنى صوابى إلى حقائق أخرى ليس من

سبيل إلى تجاهلها.

فليس لحياتى إن النظم العربية كل هذه الأهمية التى أسبغها عليها، وليست لحياة أى منا أى أهمية لدى النظم العربية، فإن حياة هذه النظم هى الأهم فى الواقع.

ثم إن إنتحارى - على الأرجح - سيأتى بنتائج وخيمة لن تكون فى صالح أى قضية وعلى رأسها قضية فلسطين. إذ ربما ينتهز زبانية الأنظمة العربية هذه الفرصة ليدللوا على خطورة مقالات الصحف ونشرات الأخبار والأغانى الوطنية على حياة المواطن العربى.

ومن باب أولى يؤكد إنتحارى أهمية المعالجة الزائفة التى تتبناها هذه النظم للقضايا العربية.

وسوف يسهل انتحارى على هذه الطريقة لملمة مجموعة من العقائد والأفكار العامة التى تميز نظرة الناس إلى الانتحار والمنتحرين، ولصقها - بطريقة أو بأخرى - بكل من ينادى بتحرير فلسطين، فيقال مثلاً إن الدعوة لتحرير فلسطين ظاهرة مرضية أو فوق طبيعية مضادة لسلامة الخيار الإستراتيجى، وأن أساس هذه الدعوة يكمن فى العقل الباطن وصدمات الطفولة. وقد يطالب أحد دراويش السلطة المغرمين بكل ماتتخذه من مواقف بالزج بكل من تسول له نفسه المطالبة بتحرير فلسطين فى مستشفيات الأمراض العقلية.

لم يتبق لى من فكرة الانتحار إحتجاجاً سوى جانبها الشخصى، وهو بالفعل الجانب المرضى فى المسألة، إذ يمثل الإنتحار - مجرداً من جانبه العام - مجرد الهروب، أو عدم قدرة النفس على مواجهة الواقع وترويضه (ترويض الواقع وليس النفس).

***

لقد أقلعت حقاً عن فكرة الانتحار من أجل فلسطين - أو بالأحرى من أجل النظم العربية. لكن للفكرة - مازال - بريقها، تراودنى من حين لآخر. ومن أجل ذلك استعنت بالكتابة، لعلها تقدر على صد الفكرة نهائياً. أو لعلها تقيض لى من يتصحنى بالانتحار ويقنعنى بأن الفكرة صالحة وذات نتائج لابأس بها. ساعتها - صدقونى - سأنتحر فوراً وبكل ارتياح.

عصام الزهيرى
الفيوم

رقم الايداع ٧٥١٢ / ٩٢ الثمن جنيهان الأمل للطباعة والنشر